فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

أنشئ سنة ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صُوًى « ومناراً » كمنار الطريق

٢٩ رمضان سنة ١٣٥٣ برج الجدي سنة ١٣١٣هـ ش ٥ يناير سنة ١٩٣٥

تفسير القرآن الحكيم

تفسير [illegible]

(١١٤) وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٥) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

هذا أمر بأعظم العبادات وبأعظم الاخلاق ، اللذين يستعان بهما على ماقبلهما من الامر بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون الى أولي الظلم، ولذلك عطفا عليهما

١١٤ ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ خص إقامة الصلاة بالذكر في هذه الوصية العامة المجملة لانها رأس العبادات المغذية للإيمان والمعينة على سائر الأعمال، أي أدها على الوجه القويم وأدمها في طرفي النهار من كل يوم ، طرف الشيء والزمن

الناحية والطائفة منه ونهايته ، فطرفا النهار هنا البكرة والاصيل أو الغدو والعشي وقد أمرنا تعالى في التنزيل بالذكر والتسبيح فيها (وزلفا من الليل) أي وفي زلف من الليل جمع زلفة وهي بالضم كقرب جمع قربة لفظا ومعنى وتطلق كما في معاجم اللغة على الطائفة من أول الليل لقربها من النهار ، وقالوا الزلف ساعات الليل الآخذة من النهار ، وساعات النهار الآخذة من الليل ، روي عن ابن عباس أن صلاة طرفي النهار المغرب والغداة (أي الفجر) وزلف الليل العتمة (أي العشاء) وعن الحسن أن صلاة طرفي النهار الفجر والعصر ، وقال في زلف الليل هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وقال : قال رسول الله ﷺ « هما زلفتا الليل » وهذا أقرب إلى اللغة مما قبله فإن صح المرفوع فلا معدل عنه ، وأدخل بعض المفسرين صلاة الظهر في طرفي النهار ، إذ يصح أن يسمى وقتها طرفا بمعنى أنه طائفة وناحية من النهار يفصلها من غيرها زوال الشمس ولكنه طرف ثالث واللفظ هنا مثنى ، وفي سورة طه (٢٠ : ١٣٠ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل وأطراف النهار لعلك ترضى) فجمع الاطراف بعد ذكر الطرفين الاخيرين بالمعنى وهما وقتا صلاتي الفجر والعصر

والاظهر في أمثال هذه الآيات ذكر الله تعالى المطلق فيدخل فيه الصلاة وغيرها والآية الصريحة في أوقات الصلوات الخمس قوله تعالى (٣٠ : ١٨ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ١٩ وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون) تمسون تدخلون في المساء وهو ما بين الظهر إلى المغرب ، نقله في المصباح عن ابن القوطية وذكره هو وغيره مثل هذا في تفسير العشي وهو غلط سببه اشتراك الوقتين باتصال آخر المساء بأول العشي وهو أول الليل حيث يختلط النور بالظلام ، فصلاة المغرب العشاء الاولى ، وصلاة العتمة العشاء الآخرة التي يزول عندها الشفق وهو آخر أثر لنور النهار ، وفي معنى هذا قوله تعالى (١٧ : ٧٨ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر) الآية فدلوك الشمس زوالها أي أقمها لأول وقتها

حدا وقته صلاة الظهر، منتهيا الى غسق الليل وهو ابتداء ظلمته ويدخل فيه صلاة العصر والعشاءين وأقم صلاة الفجر

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ الجملة تعليل للأمر قبلها مبين لحكمته وفائدته ومعناها أن للاعمال الحسنة من تزكية النفس واصلاحها، مايمحو منها تأثير الاعمال السيئة وافسادها، روي عن ابن مسعود وابن عباس تفسير الحسنات فيها بالصلوات الخمس، زاد ابن عباس والباقيات الصالحات، ولا غرو فالصلاة أعظم الحسنات، وأكبر العبادات المكفرة للسيئات، ولكن لفظ الحسنات عام يشمل جميع الاعمال الصالحات حتى التروك فانها عمل نفسي ومنه (٤: ٣١ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) ﴿إن في ذلك ذكرى للذاكرين﴾ أي إن فيما ذكر من الوصايا والأمر بالاستقامة إلى هنا لموعظة للمتعظين الذين يراقبون الله ولا ينسونه، وفي الحديث «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»

وقد فسروا [illegible] في سبب نزول الآية عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك كأنه يسأله عن كفارتها فأنزلت عليه (وأقم الصلاة طرفي النهار) الخ فقال يارسول الله ألي هذه؟ قال «هي لمن عمل بها من أمتي» رواه الجماعة إلا أبا داود، وأشهر رواة التفسير المأثور، وفي رواية لغير البخاري وأبي داود منهم ان الرجل قال للنبي اني وجدت امرأة في البستان فصنعت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ماشئت، فلم يقل له رسول الله ﷺ شيئا فذهب الرجل فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله بصره فقال «ردوه علي» فردوه فقرأ عليه (وأقم الصلاة طرفي النهار) الآية. فقال معاذ بن جبل يارسول الله: أله وحده أم للناس كافة؟ قال «بل للناس كافة» وليس في هذه الرواية أن الآية نزلت في هذه النازلة، وهنالك روايات أخرى عن معاذ بن جبل وابن عباس في معنى حديث ابن مسعود في الجملة أو معزاه وقد سمي الرجل في بعضها بأبي اليسر، ومنها حديث أبي أمامة عند أحمد

ومسلم وأبي داود وغيرهم أن رجلا قال للنبي ﷺ يارسول الله أقم فيّ حد الله، مرة أو مرتين فأعرض عنه ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ منها قال « أين الرجل ؟ » قال أنا ذا، قال « أتممت الوضوء، وصليت معنا آنفا ؟ » قال نعم ، قال « فانك خرجت من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد » والمراد خرجت من خطيئتك التي طلبت تكفيرها باقامة الحد وهي لا حد فيها . وانما يجب في تكفيرها التوبة والعمل الصالح الذي يزكي النفس ، ومن أعظمها الوضوء التام واقامة الصلاة ، وقد تاب الرجل توبة نصوحا بدليل طلبه اقامة الحد عليه ، والتوبة مع العمل الصالح تكفر الصغائر والكبائر إلا حقوق العباد ، فانه يجب أدؤها أو استحلال أهلها منها إن أمكن . وذهب بعض العلماء إلى أن تكفير الحسنات للصغائر لا يشترط فيه التوبة اذا اجتنبت الكبائر ، ويقول الغزالي ان كل نوع من الحسنات يكفر ماهو ضده من السيئات ، كتكفير [illegible] بال[illegible] والاساءة الى الناس بالاحسان الخ

والآيات في تكفير السوء والسيئات المطلقة والمعينة كثيرة ، ومن الثاني كفارات الظهار [illegible] لا [illegible] والحنث [illegible] وأمثال هذه لا يشترط فيها التوبة ، فذنوب [illegible] مع شهوات النفس [illegible] تكرارها كالفواحش والمنكرات المدنسة للنفس باتباع الهوى والشهوات فهذه لا يطهرها منها ويزكيها الا التوبة ولا معنى لتكفير الذنوب وغفرانها الا هذا ،

وإنما تتحقق التوبة بالندم على فعل الذنب المقتضي لتركه وإزالة أثره من النفس بالعمل الصالح ، فبجملة هذه المعاني الثلاث يحصل الرجوع إلى الله بعد الاعراض والبعد عنه بعصيانه ، وشرح الغزالي هذا المعنى للتوبة بقوله إنها مركبة من علم وحال وعمل كل منها سبب لما بعده ، فالعلم بحرمة الذنب وكونه سببا لسخط الله تعالى وعقابه يوجب الحال وهي الخوف وألم النفس وهذا يوجب العمل وهو ترك الذنب وتكفيره بالعمل الصالح اه بالمعنى موجزا

وقد تكلمنا على التوبة في مواضع من هذا التفسير منها الكلام على توبة آدم في سورتي البقرة والاعراف ، ومنها في سورة النساء قوله تعالى (٤ : ١٧ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) إلى آخر الآيتين ،

ومنها في سورة الانعام (٦: ٥٤ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم) وسيأتي في معناه من سورة النحل (١٦: ١١٩ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) ومثله في سورة طه (٢٠: ٨٢ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وناهيك بما تقدم في أواخر التوبة من آيات التوبة ولا سيا توبة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فيها أكبر العبر للمؤمنين المسلمين

---

١١٥ ﴿ واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أي ووطن نفسك على احتمال المشقة في سبيل ما أمرت به وما نهيت عنه في هذه الوصايا حق الصلاة كما قال (٢٠: ١٣٢ وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) واستعن بالصبر والصلاة على سائر أعباء الدعوة إلى الاسلام والاصلاح، وانتظار عاقبتها من النصر والفلاح، فان هذا من الاحسان الذي لا يناله إلا الاحسان. فان الله لا يضيع أجر المحسنين في أعمالهم في الدنيا ولا في الآخرة بل يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، ولكن للجزاء في أمور الأمم آجالا وأقدارا يجب الصبر في انتظارها، وعدم استعجالها قبل أوانها.

---

(١١٦) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٧) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٩) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

هذه الآيات الثلاث في بيان سنن الله العامة في إهلاك أولئك الأقوام الذين قص على رسوله قصصهم وأمثالهم بعد ما تقدم من بيان عاقبتهم في الدنيا والآخرة ، وإنذار قومه ﷺ بهم ، وما يجب عليه وعلى من آمن وتاب معه من الاستقامة والصلاح، واجتناب أهل الظلم والفساد ، قال

١١٦ ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ لولا تحضيضية بمعنى هلا ، والقرون الأمم والأقوام : والقرن في اللغة كما في المصباح : « الجيل من الناس قيل ثمانون سنة وقيل سبعون » أقول ثم اشتهر تقديره بمائة سنة . والبقية من الشيء ما يبقى منه بعد ذهاب أكثره ، ومن الناس كذلك ، واستعمل في الخيار والأصلح والأنفع . قيل لأن الناس ينفقون في العادة أردأ ما عندهم وأقربه إلى التلف والفساد أولا ويستبقون الأجود فالأجود ، ويقول [illegible] الأضعف فالأضعف أولا ويبقى الأقوى فالأقوى ، ومن هنا ما يعرف [illegible] سنة الانتخاب الطبيعي، وهو إفضاء تنازع الأحياء الى بقاء الأمثل والأصلح، كما ورد في المثل الذي ضربه الله للحق والباطل بقوله تعالى (١٣: ١٧ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ومن ثم يعبرون عن الخيار بالبقية يقولون: في الزوايا خبايا، وفي الناس بقايا ، وبهذا فسرت الآية

والمعنى : فهلا كان أي وجد من أولئك الأقوام الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم في الأرض جماعة أصحاب بقية من النهى والرأي والصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض وهو الظلم واتباع الهوى والشهوات التي تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم ، فيحول نهيهم إياهم دون هلاكهم ، فان من سنتنا أن لا نهلك قوما إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم كما يأتي في الآية التالية ﴿ إلا قليلا ممن أنجينا منهم ﴾ أي لم يكن فيهم بقية من هؤلاء العقلاء الأخيار ، الناهين عن المنكر ، الآمرين

بالمعروف ، ولكن كان هنالك قليل من الذين أنجيناهم أو هم الذين أنجيناهم مع الرسل منهم وكانوا منبوذين مهددين مع رسلهم بالطرد والابعاد ، بعد الاذى والاضطهاد ﴿ واتبع الذين ظلموا ﴾ وهم الاكثرون منهم ﴿ ما أترفوا فيه ﴾ أي ما رزقناهم وآتيناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا . يقال أترفته النعمة أي أبطرته وأفسدته، والبطر الطغيان في المرح وخفة النشاط والفرح ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ أي متلبسين بالاجرام الذي ولده الترف راسخين فيه ، فكان هو المسخر لعقولهم في ترجيح ما أعطوا من ذلك على اتباع الرسل .

روى ابن مردويه في تفسيره عن أبي بن كعب قال أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم « أولوا بقية وأحلام » والأشبه عندي أنه ﷺ ذكر الاحلام تفسيراً لا قرآناً . والمعنى ان العقول السليمة الرشيدة كافية لفهم ما في دعوة الرسل عليهم السلام من الخير والصلاح [illegible] هدايتها الافتتان بالترف ، والتفنن في أنواعه ، بدلا من القصد والاعتدال [illegible] عليه ، فالاتراف هو الباعث على الاسراف والفسوق والعصيان ، والظلم والاجرام ، يظهر في الكبراء والرؤساء ، ويسري بالتقليد في الدهماء ، فيكون سبب الهلاك بالاستئصال ، أو فقد الاستقلال ، وذلك قوله تعالى (١٧: ١٦ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) فهذا بيان لسنته تعالى في الامم قديمها وحديثها ، ولا تغني عن شعوب الافرنج معرفتهم بهذه السنة ومحاولة اتقائهم لها ، فحكماؤهم وهم أولو البقية والاحلام الذين ينهونهم عن الفساد في الارض يصرحون بأنهم سيهلكون كما هلك من قبلهم ، ولن تغني عنهم قوتهم ، بل تكون هي المهلكة لهم بأيديهم ، كما قال تعالى (٧ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) فراجع تفسيرها

ومن عجائب الجهل والغي أن مترفي الاتراف من شعوبنا يقلدون الافرنج

في الاسراف فيه دون ما هم به يرجون اتقاء الهلاك من فساده وهو القوة الحربية والثروة والعلم فاذا كان فسق الاتراف يهلك الامم القوية فكيف تبقى مع اتباعه وفساده الامم الضعيفة ؟ وكيف يزول والمتبعون له هم الملوك والامراء ، والزعماء والحكام ، والكتاب والخطباء ، وهم الاكثرون الظاهرون ، والناهون عن فسادهم الاقلون الخاملون ؟!

ثم بين سنته تعالى في إهلاك الأمم وما يحول دونه بهذه الآية الوجيزة

١١٧ ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ اي وما كان من شأن ربك وسنته في الاجتماع البشري أن يهلك الامم بظلم منه لها في حال كون أهلها مصلحين في الارض ، مجتنبين الفساد والظلم ، وانما أهلكهم ويهلكهم بظلمهم وإفسادهم فيها ، كما ترى في الآيات المتقدمة من هذه السورة وغيرها

وفي الآية وجه آخر وهو أنه ليس من سنته تعالى أن يهلك القرى بظلم يقع فيها مع تفسير الظلم بالشرك وأهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية ، وأحكامهم المدنية والتأديبية ، فلا يبخسون الحقوق كقوم شعيب ، ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر كقوم لوط ، ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود ، بل لا بد أن يضموا إلى الشرك الافساد في الاعمال والاحكام ، وهو الظلم المدمر للعمران ، ويحتمل أن يراد أنه لا يهلكها بظلم قليل من أهلها لأنفسهم ، إذا كان الجمهور الاكبر منهم مصلحين في جل أعمالهم ومعاملاتهم للناس ، أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير ابن عبدالله قال : سمعت رسول الله ﷺ يسئل عن تفسير هذه الآية فقال « وأهلها ينصف بعضهم بعضا » وروي موقوفا على جرير (رض) ، فتنكير الظلم في هذا للتقليل والتحقير ، وفيما قبله للتعظيم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) والآية تدل على أن إهلاك المصلحين ظلم فلذلك ينزه الله عنه

وذكر المفسرون في الوجه الثاني القول المشهور المعبر عن تجارب الناس ، وهو

ان الامم تبقى مع الكفر ، ولا تبقي مع الظلم ، والاوجه الثلاثة في الآية صحيحة ويجوز إرادتها كلها على القول بأن جميع ما يدل عليه الكلام مما شأن صاحبه أن يعلمه ولا يكون متعارضا في نفسه يصح أن يكون مراداً له ، وإن كان من المشترك أو كان بعضه حقيقة وبعضه مجازاً ، ومن أركان بلاغة القرآن جمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل ، وأن يكون بعضها واضحاً في هذه المعاني وبعضها خفياً يراد به أن يذهب الذهن والفكر فيه كل مذهب ، وهذا مما يتنافس فيه البلغاء

١١٨ ﴿ ولو شاء ربك ﴾ أيها الرسول الحريص على إيمان قومه الآسف على إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته واتباع هدايته ﴿ لجعل الناس أمة واحدة ﴾ على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا رأي لهم فيه ولا اختيار ، وإذن لما كانوا هم هذا النوع من الخلق المسمى بالبشر وبنوع الانسان ، بل لكانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو النمل، وفي حياتهم الروحية كالملائكة مفطورين على اعتقاد الحق وطاعة الله [illegible] ولكنه خلقهم بمقتضى حكمته كاسبين العلم لا ملهمين، وعاملين بالاختيار وترجيح بعض الممكنات المتعارضة على بعض لامجبورين ولا مضطرين ، وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم واختلاف الاختيار، وقد كانوا في طور الطفولة النوعية في الحياة الفردية والزوجية والاجتماع البدوي الساذج أمة واحدة لا مثار للاختلاف بينهم، ثم كثروا ودخلوا في طور الحياة الاجتماعية فظهر استعدادهم للاختلاف والتنازع فاختلفوا ، كما قال تعالى (١٠:٢٠ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) في كل شيء ، بالتبع لاختلاف الاستعداد ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ في كل شيء ، حتى الدين الذي شرعه الله لتكميل فطرتهم وإزالة الاختلاف بينهم ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ منهم فاتفقوا على حكم كتاب الله فيهم ، وهو القطعي الدلالة منه الذي لا مجال للاختلاف فيه ، وعليه مدار جمع الكلمة ووحدة الامة ، إذ الظني لا يكلفون الاتفاق على معناه لانه موكول إلى الاجتهاد الذي لا يجب العمل به إلا على من ثبت عنده رجحانه ، وتقدم تفصيل وحدة البشر فاختلافهم فبعثة النبيين وانزال الكتاب معهم للحكم بين الناس في

الآية (٢ : ٢١٣) وتفسيرها في الجزء الثاني من هذا التفسير .

﴿ ولذلك خلقهم ﴾ أي ولذلك الذي دل عليه الكلام من مشيئته تعالى فيهم خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم ، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم ، ومن ذلك الدين والايمان والطاعة والعصيان ، وحكمته أن يكونوا مظهر الأسرار خلقه المادية والمعنوية في الاجسام والارواح وسننه في الاحياء ، وتعلق قدرته ومشيئته بخلق جميع الممكنات كما فصلنا ذلك من قبل قال الحسن وعطاء خلقهم للاختلاف ، وقال مجاهد وعكرمة خلقهم للرحمة ، وقال ابن عباس خلقهم فريقين : فريقا يرحم فلا يختلف وفريقا لا يرحم فيختلف، فذلك قوله (فمنهم شقي وسعيد) وهذا أصح مما قبله لانه جامع للقولين، وفي معناه قول مالك بن أنس وقد سأله أشهب عن الآية فقال : خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، أي كان الاختلاف سبب دخول كل من الدارين، وفي الرواية عن ابن [illegible] العلة على [illegible] والمعلول المشروع عكسه، فالترتيب في [illegible] الذين اتبعوا كتاب الله حكما بينهم فيما اختلفوا فيه فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة فرحمهم الله بوقايتهم من شر الاختلاف وغوائله في الدنيا ومن عذاب الآخرة، وفريق اختلفوا فيه كما اختلفوا في مصالح الدنيا ومنافعها وسلطانها فكان بأسهم بينهم شديداً فذاقوا عقاب الاختلاف والشقاق في الدنيا وأعقبهم جزاءه في الآخرة فكانوا محرومين من رحمته بظلمهم لانفسهم لا بظلم منه لهم ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ التي قالها في غير المهتدين ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ أي من عالمي الانس والجن الذين لا يهتدون بما أرسل به رسله وأنزل معهم كتبه لهداية المكلفين والحكم بين المختلفين، في سورة الم السجدة (٣٢ : ١٣ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم) الآية ، فهذا فريق السعير ، ومنه يعلم جزاء الفريق الآخر ، والمقام يقتضي الانذار

(١١٩) وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

هذه الآيات الاربع خاتمة هذه السورة وهي في بيان ما أفادت رسول الله وخاتم النبيين ﷺ من أنباء أشهر الرسل الاولين مع أقوامهم في قصصه ، وما تفيده المؤمنين علما بها، وما يجب أن يبلغه غير المؤمنين به من الانذار والتهديد لهم، والاشارة الى ما ينتظره كل فريق من عاقبة أعمالهم وأمره بعبادته والتوكل عليه ، وعدم المبالاة بما يعملون من عداوته والكيد له ، قال تعالى :

١٢٠ ـ ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ﴾ أي وكل نوع من أنباء الرسل نقص عليك ونحدثك به على وجهه الذي يعلم من تتبعه واستقصائه به، فان معنى القص في الاصل تتبع أثر الشيء للاحاطة به، ومنه (وقالت لأخته قصيه) ثم قيل قص خبره اذا حدث به على وجهه الذي استقصاه ، والنبأ الخبر المهم ، فهذه الكلية تشمل أنواع الانباء المفيدة من قصص الرسل الصحيحة في صورها الكلامية وأساليبها البيانية ، وأنواع فوائدها العلمية ، وعبرها ومواعظها النفسية، دون الامور العادية المستغنى عن ذكرها ، كالتي تراها في سفر التكوين الذي يعدونه من التوراة وأمثاله ﴿ ما نثبت به فؤادك ﴾ أي نقص منها عليك ما نثبت به فؤادك ، أي نقويه ونجعله راسخا في ثباته كالجبل في القيام باعباء الرسالة

ونشر الدعوة بما في هذه القصص من زيادة العلم بسنن الله في الاقوام ، وما قاساه

رسلهم من الايذاء فصبروا صبر الكرام ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ اي في هذه السورة ـ وهو المروي عن ابن عباس وابي موسى الاشعري من الصحابة وسعيد ابن جبير والحسن البصري من التابعين وعليه الجمهور ، ـ وقيل في هذه الأنباء المقصة عليك ـ بيان الحق الذى دعا اليه جميع أولئك الرسل من أصل دين الله وأركانه وهو توحيده بعبادته وحده واتقائه واستغفاره والتوبة اليه وترك ما يسخطه من الفواحش والمنكرات والظلم والاجرام والايمان بالبعث والجزاء والعمل الصالح

﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ الذين يتعظون بما حل بالامم من عقاب الله ويتذكرون ما فيها من عاقبة الظلم والفساد ، ونصره تعالى لمن نصره ونصر رسله ، فالمؤمنون هنا يشمل من كانوا آمنوا بالفعل والمستعدين للايمان الذين آمنوا بهذه الموعظة والذكرى كالذين آمنوا بمضمون هذه الآية من الاعجاز بالايجاز ، ما يناسب اعجاز تلك القصص التي جمعت فوائدها بهذه الكلمات

١٢١ ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ أي فبشر به المؤمنين الذين يتعظون ويتذكرون ، وقل للكافرين الذين لا يؤمنون فلا يتعظون : اعملوا على ما في مكنتكم أو تمكنكم واستطاعتكم من مقاومة الدعوة وإيذاء الداعي والمستجيبين له ، وهذا الامر للتهديد والوعيد ، أي فسوف تلقون جزاء ما تعملون من العقاب والخذلان

﴿ إنا عاملون ﴾ على مكانتنا من الثبات على الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته ﴿ وانتظروا ﴾ بنا ما تتمنون لنا من انتهاء أمرنا بالموت أو غيره مما تتحدثون به ، ومنه ما حكاه تعالى عنهم في قوله (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) وما في معناه

﴿ إنا منتظرون ﴾ ما وعدنا ربنا من النصر وظهور هذا الدين ولو كره الكافرون ،

وإتمام نوره ولو كره المشركون ، وعقاب المعاندين منهم في الدنيا بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين

١٢٣ ﴿ ولله غيب السموات والارض ﴾ أي وله وحده ما هو غائب عن علمك أيها الرسول وعن علمهم من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، مما تنتظر من وعد الله لك ووعيده لهم ، ومما ينتظرون من أمانيهم وأوهامهم ، فهو المالك له المتصرف فيه، العالم بما سيقع منه وبوقته الذي يقع فيه ﴿ واليه يرجع الامر كله ﴾ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قرأ الجمهور « يرجع » بفتح الياء وكسر الجيم ، ونافع وحفص بضم الاول وفتح الثانية ، والمعنى واحد ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ أي واذا كان له كل شيء ، واليه يرجع كل أمر فاعبده كما أمرت بإخلاص الدين له وحده من عبادة شخصية قاصرة عليك، ومن عبادة متعدية النفع لغيرك، وهي الدعوة إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وتوكل عليه ليوفيك وعليك ما وعدك بما لا تبلغه استطاعتك، فالتوكل لا يصح بغير العبادة ولا اتخاذ الاسباب المستطاعة، وانما يكون بدونها من التمني الكاذب والآمال الخادعة ، كما أن العبادة وهي ما يراد به وجه الله من كل عمل لا تكمل إلا بالتوكل الذي يكمل به التوحيد، قال (ص) « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد بن أوس بسند صحيح ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ جميعاً : ما تعمله انت أيها النبي والمؤمنون من عبادته والتوكل عليه، والصبر على أذى المشركين ، وتوطين النفس على مصابرتهم وجهادهم ، فهو يوفيكم جزاءه في الدنيا والآخرة ، وما يعمله المشركون من الكفر والكيد لكم ، وهذه قراءة نافع وحفص، وقرأ الجمهور (يعملون) بالتحتية ، وهي نص في وعيد المشركين وحدهم بالجزاء على جميع أعمالهم ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده محمداً رسول الله وخاتم النبيين ، فالحمد لله رب العالمين

(تم تفسير السورة التفصيل ويليه خلاصته الاجمالية)

الخلاصة الاجمالية لسورة هود عليه السلام

(وفيها أبواب)

هذه السورة أشبه السور بسورة يونس التي قبلها في أسلوبها وما اشتملت من أصول عقائد الاسلام التي بيناها في خلاصتها من التوحيد والبعث والجزاء والعمل الصالح وعاقبة الظلم والفساد في الارض ، وحجج القرآن وأعجازه والتحدي به ، واثبات نبوة محمد ﷺ وقصص الرسل عليهم السلام وسنن الله في الامم ، ومناسبتها في براعة المطلع والمقطع كما بيناه في فاتحة هذه . ولكن في تلك من التفصيل في محاجة المشركين في تلك الاصول ما أجمل في هذه ، وفي هذه من التفصيل في قصص الرسل ما أجمل في تلك . هذا مختصر في خلاصتها الاجمالية فيما عدا قصص الرسل وعاقبة الاقوام في الدنيا والآخرة [illegible]

(الباب الاول)

(في توحيد الله تعالى وصفاته وتدبيره لأمور عباده وسننه في تصرفه فيهم بالرحمة والفضل ، وجزائهم على أعمالهم بالعدل ، والتنزه عن الظلم وفيه ثلاثة فصول :

(الفصل الاول في توحيد الربوبية والالوهية)

(١) توحيد الالهية

هو أول مادعا اليه محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ وأول مادعا اليه جميع من قبله من رسل الله عز وجل ، أعني عبادة الله وحده ، وعدم عبادة شيء غيره أو معه ، كما تراه بعد افتتاح السورة بذكر القرآن من خطابه تعالى لقومه وأمته بقوله في الآية الثانية (ألا تعبدوا إلا الله) ومثله أول مادعا اليه نوح عليه السلام في الآية (٢٦) منها ، وفي معناه أول ما دعا هود في الآية (٥٠) وصالح في الآية (٦١) وشعيب في الآية (٨٤) (قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

وان أكثر الذين يقرءون القرآن أو يسمعونه وهم يأخذون عقائدهم المشوبة بالوثنية من تقاليد آبائهم الجاهلين لا من القرآن يظنون أن المراد بالعبادة في هذا الامر والنهي عبادة الاسلام المنزلة من الصلاة والصيام، ونحوهما مما جاء به أولئك الرسل ايضا ، لأنهم يجهلون أن دعوتهم هذه هي أول ما وجهوه إلى المشركين غير المؤمنين بهم قبل فرضية العبادات المنزلة عليهم، نهوهم بها عن عباداتهم الوثنية التقليدية وهي دعاء غير الله لجلب النفع وكشف الضر ، والذبح لغير الله ، والنذر لغير الله ، وشد الرحال لتعظيم غير الله تعظيما تعبديا يتقربون به إلى غير الله ليقربهم إلى الله ويشفع لهم عنده، ويظنون أن المراد بغير الله من هذه المعبودات خاص بالاصنام كما يرون تفسيرها في مثل الجلالين ، وان دعاء الانبياء والاولياء لدفع الضر وجلب النفع والنذور وتقريب القرابين لهم لا ينافي دين الله وتوحيده على هذا التفسير

والصواب المجمع عليه المعلوم من دين الاسلام بالضرورة ونصوص القرآن القطعية أنه لا فرق في عبادة غير الله بين ما ذكرنا من الاصنام وغيرها من حجر وشجر وكوكب ، أو بشر نبي أو ولي أو شيطان أو ملك ، إذا توجه العبد اليها توجهاً تعبديا ابتغاء النفع أو كشف الضر في غير [illegible] الاسباب التي سخرها الله لجميع الناس ، فعبادة الملك أو النبي أو الولي كفر كعبادة الشيطان أو الوثن والصنم بغير فرق ، اذ كل ما عدا الله فهو عبد وملك لله لا يتوجه اليه مع الله ولا من دون الله ، ولا لاجل التقريب زلفى إلى الله ، بل يتوجه في كل ما سوى العادات العامة إلى الله وحده كما أمر الله ابراهيم ومحمداً ﷺ في كتابه ، ولا فرق في هذا التوجه بين تسميته عبادة كما كانت العرب تقول وهي أعلم بلغتها ، وبين تسميته توسلا أو استشفاعا كما فعل بعض المتأخرين ، فالمعنى واحد لا يختلف حكمه باختلاف أسمائه

(٢) توحيد الربوبية

الاله هو المعبود الذي يتوجه بالدعاء والتأله والخشوع الخاص بالايمان بالسلطان الغيبي ، والرب هو الخالق للمربي والمدبر لعباده والمتصرف فيهم بذاته ، ومقتضى حكمته ونظام سننه ، وتسخيره الاسباب لمن شاء بما شاء ، وكان أكثر

مشركي العرب ومن قبلهم من أقوام الانبياء يؤمنون بأن الرب الخالق المدبر واحد، وإنما يقولون بتعدد الآلهة التي يتقرب اليها توسلا إلى الله وطلباً للشفاعة عنده، وكانت الانبياء والرسل تقيم الحجة عليهم بأن توحيد الربوبية يقتضي توحيد الالوهية، إذ العبادة لا تصح ولا تنبغي إلا للرب وحده، وآيات القرآن في هذا كثيرة جداً

تأمل كيف خاطب الله أمة خاتم النبيين في الآية الثانية من هذه السورة بعبادته وحده، وفي الآية الثالثة منها باستغفار ربهم والتوبة اليه من كل ذنب ليمتعهم متاعا حسنا ويؤتي كل ذي فضل فضله، ونجد مثل هذا في قصة هود (٥٢) وفي قصة شعيب (٩٠) وتأمل كيف بين لنبيه في الآيتين ٦ و٧ أنه ما من دابة في الارض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، وانه هو الذي خلق السموات والارض الخ والمراد أن العبادة لا تصح ولا تنبغي إلا له سبحانه

ثم تأمل كيف أخبر نوح وهو أول الرسل قومه وهم أول من ابتدع الشرك بالغلو في تعظيم الصالحين في الآية (٣١) بأنه ليس عنده خزائن الله فيقدر على رزقهم أو نفعهم، وأنه لا يعلم الغيب ولا يقول انه ملك يتصرف في تدبير العالم باقدار الله اياه على ذلك كما فعلوا اذ صاروا يدعون غير الله من المقربين عنده والمقربين اليه بزعمهم، وتقدم مثلها عن نبينا ﷺ في الآية (٥٠) من سورة الانعام وفي معناها من سورة الاعراف (٧ : ١٨٧) ومن سورة يونس (١٠ : ٤٩)

ثم تأمل في قصة هود آية (٥٦ اني توكلت على الله ربي وربكم) الخ وفي معناه توكل شعيب في الآية (٨٨) ثم ختم السورة بأمر نبينا صلوات الله وسلامه عليه بقوله (١٢٣ ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه) فجمع بين العبادة وهي أعلى توحيد الالوهية، والتوكل وهو أعلى توحيد الربوبية، وحسبنا هذه الشواهد من الرسل (ع.م) من هذه السورة

الفصل الثاني في صفاته تعالى

في السورة من صفات الذات والافعال: الحكيم الخبير العليم القدير الوكيل الغفور الرحيم الحفيظ القريب المجيب القوي العزيز الرقيب الودود البصير، فمنها

ما وصف به تعالى مفرداً وما وصف به مقترنا بغيره ، وما اتصل بمتعلقه ، ولكل منها أثم التأسية لموضوعه في موضعه، مما يذكر المتدبر له بتدبيره تعالى لأمور عباده، ويزيده إيمانا بمعرفة جلاله وجماله ، وكماله في صفاته وأفعاله ، ورحمته وإحسانه المحسنين ، وتربيته وعقابه المجرمين والظالمين ، وحسبك شاهداً عليه في تمسك تدبر إحاطة علمه تعالى بما تسر وتعلن في الآية الخامسة (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) فلا تغفلن عن هذه المعاني أيها التالي القرآن أو المستمع له فيفوتك من العرفان وغذاء الايمان، ما أنت في أشد الحاجة اليه لتزكية نفسك، التي هي أقرب الوسائل لفلاحك وسعادتك ، فان تأمل هذه الاسماء في مواضعها من بيان شئونه تعالى في العباد أقوى تفقها في الدين وتكميلا العرفان من تكرار الاسم الواحد مراراً كثيرة كما يفعل المتصوفة المرتاضون ، ومقلدهم المرتزقون ، وهو غير مشروع خلافا لما زعمه المتأولون لقوله تعالى (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) فاسم الجلالة هنا مبتدأ [illegible] ما قبله عليه وهو قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى [illegible] : قل الله هو الذي أنزله ، فهو ليس اسما مفرداً يكرر تعبداً

ومثله تأولهم لحديث « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض الله الله » رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أنس ، ولفظ الجلالة فيه مرفوع على أنه مبتدأ حذف خبره للعلم به من القرينة، والمعنى - حتى لا يقال: الله فعل كذا، الله أمات وأحيا، لذهاب الايمان به تعالى . والاسم المفرد في ذكرهم يكررونه بالسكون لا يقصد به معنى جملة ، وإنما يقصد به حصر التوجه وجمع الهمة بما جربه الرياضيون ، وجهله المقلدون

(الفصل الثالث آياته تعالى في الخلق والتقدير ، والتصرف والتدبير)

(وفيه أربعة شواهد على ما قبله)

(ش ١) قوله تعالى بعد آية توحيد العبادة للإله الواحد استدلالا عليه بتوحيد الربوبية (٣ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا) الخ فهو صريح

في أن رب الناس هو الذي يعطيهم ما يتمتعون به من منافع الدنيا المادية الجسدية ، وما يفضل به بعضهم بعضا من الفضائل النفسية من علم وأدب وخلق ، وان الوسيلة لهذا وذاك بعد الايمان بوحدانيته ولقائه في الآخرة هي استغفاره من كل ذنب ، والتوبة من كل تقصير في طاعته ، والرجوع اليه عقب كل إعراض عن آيات هدايته ، ليس لغيره تأثير شخصي في إعطاء هذا ولا ذاك بتصرفه بنفسه ، ولا بشفاعته عنده ، فيدعى من دونه أو يتوجه اليه معه في طلبه ، ومن راقب نفسه وحاسبها في هذا شاهد تأثيره في نفسه ، فازداد إيمانا بربه ، وشاهده في غيره من الموحدين المستغفرين التوابين ، وضده في المشركين والمصرين على ذنوبهم وجرائمهم ، فانه يرى أكثر هؤلاء متاعا في هم واصب ، وتنغيص دائب ، لان سعادة الدنيا من صفات النفس ، لا من كثرة الاعراض في اليد

ولهذا كان رسل الله الاولون يأمرون أقوامهم بعد التوحيد بالاستغفار والتوبة أيضا كما ترى في الآية (٥٢) من قصة هود [illegible] إرسال المطر وهو سبب سعة الرزق ، وزيادة القوة البدنية [illegible] من ربهم ، ويتوسلون الى ما يعجزون عنه منه بآلهتهم ، وفي الآية (٦١) من قصة صالح وقد بنى الامر فيها على ما سبق من فضله تعالى على قومه بسعة الرزق واستعمارهم في الارض ، وفي معناها الآية (٩٠) من قصة شعيب عليهم السلام

(ش٢) قوله تعالى (٦ وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) الآية — أي عليه وحده فانه لم يشاركه في خلق رزق هوامها وأنعامها وطيرها ووحشها وإنسها وجنها أحد من الانداد الذين اتخذهم المشركون ، ولا يشاركه أحد منهم في تسخير هذا الرزق لها ولا في إيصاله اليها بشفاعة ولا وساطة أخرى بينه وبينها ، فلذلك لم يشرك به أحد منها ولا من غيرها من خلقه غير بعض الانس والجن المكلفين

(ش٣) قوله بعدها وهو دليل على مضمونها (٧ خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) الآية . أي خلقها وما كان يوجد معه أحد من هؤلاء الشفعاء والاولياء المزعومين ، فهو غني عنهم الآن وفي كل آن ، كما كان غنيا عنهم عند بدء

التكوين ، وراجع ما فصلناه في تفسيرها من خلق كل شيء حي من الماء ، تر فيه من عجائب قدرته وحكمته ما يربأ بكل عاقل أن يجعل له وسيطا بينه وبين خلقه من هذا الانسان الضعيف كما وصفه خالقه

(ش ٤) الآيات (٩ و ١٠ و ١١) في بيان أحوال الناس فيا يذيقهم ربهم بحكمته من البأساء والضراء ، في هذه الحياة الدنيا دار البلاء ، وأصنافهم فيها من يائس كفور ، وفرح فخور ، وصبور شكور ، فبهذا التقسيم المشهود المخبور ، تعرف توحيد الله تعالى وفضله على المؤمنين الموحدين ، وجدارتهم بسعادة الدارين ، واستحالة أن يكون له شريك في فضله عليهم ، أو وسيط في نعمه وتكريمه لهم

الباب الثاني

(في الوحي المحمدي « القرآن العظيم » وإثبات رسالته ﷺ به ، وفيه سبع مسائل)

(م الاولى) افتتح هذه السورة كالتي قبلها بذكر هذا الكتاب العظيم ، وإحكام آياته ثم تفصيلها من لدن حكيم خبير إعلاما بأن إحكامها مبني على أساس الحكمة ، وتفصيلها مرفوع على قواعد العلم ودقة الخبرة

(م الثانية) قوله تعالى (١٢ فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) يعني ان حالك أيها الرسول مع هؤلاء المشركين المقترحين عليك ما ليس أمره اليك ، حال من يتوقع منه ترك بعض ما يثقل عليهم من الوحي ، وضيق صدره من ذلك القول ، فلا تترك شيئا مما يوحى اليك ، ولا يضق صدرك به ، إنما أنت رسول وظيفتك التبليغ والانذار ، لا الاتيان بالآيات ، ولا الوكالة عليهم تكرههم على الايمان

(م الثالثة) الرد في الآية (١٣) على قولهم « افتراه » بتحديهم بالاتيان بعشر سور مثله مفتريات ، ودعوة من استطاعوا من دون الله لمظاهرتهم وإعانتهم على الاتيان بها إن كانوا صادقين . وقد بينا في تفسيرها معنى هذا التحدي بالعشر

المفتريات بعد ماسبق في سورة يونس من التحدي بسورة واحدة ، وهو ما لاتجد مثله في تفاسير الاولين ولا الآخرين ، والحمد لله رب العالمين ، وفيه إثبات أن المراد بهذه السور ما اشتمل على قصص الرسل ، وان في إعجاز هذه القصص بالبلاغة والاساليب والنظم والعلم ماليس في غيرها ، وحكمة جعلها عشراً دوماً في العشر من هـذه السورة وما قبلها من أنواع العلم والهدى والاصلاح ، فراجعه (في ص ٣١ — ٤٦)

(م الرابعة) قوله (١٤ فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما انزل بعلم الله) وينافي تفسير معنى إنزاله بعلم الله وكونه حجة على ما فسرنا الاعجاز فيه وقد نقل عنه المفسرون

(م الخامسة) قوله (٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وهو استدلال بقصة نوح على رسالة النبي ﷺ ووجه الدلالة انه ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل إنزالها عليه في هذا الوحي الالهي ، ولو كان أحد من قومه يعلمها قبل ذلك لاحتجوا بعلمهم ، ولكن لامتنع إيمان من لم يكن آمن منهم ، ولا أحد من كان من

(م السادسة) قوله تعالى (١٠٠ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) الآية ، وفيه الاستدلال بجملة قصص السورة على كونها وحياً من وجهين أحدهما ما في المسألة الخامسة من كونهما لم يكن علمه محمد النبي الامي ﷺ وثانيهما ما اشتملت عليه من العلم الالهي والاجتماعي والتشريعي الذي فصلناه في بيان التحدي بالعشر السور من عشر وجوه

(م السابعة) قوله تعالى (١٢٠ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ماتثبت به فؤادك) الآية وهي في موضوع التي قبلها من فوائد قصص الرسل الا أن تلك في فوائدها الاجتماعية في الامم واهلاك الظالمين وانجاء المتقين ، وهذه في فوائدها الخاصة بالرسول ﷺ في نفسه وتأييد دعوته ، وفي المؤمنين به من قومه

فهذه جملة ما في السورة خاصاً بالقرآن العظيم من حيث كونه وحياً من الله تعالى دالاً على نبوة محمد ﷺ ورسالته ، وقد تفصل معنى كل منها في موضعه

الباب الثالث

في الرسالة العامة وقصص الرسل مع أقوامهم وفيه ستة فصول

الفصل الاول في رسالة محمد (ص)

بدئت السورة بدعوة هذه الرسالة من أولها إلى الآية ٢٤ وهي متضمنة لأصول دين الله (الاسلام) على ألسنة جميع الرسل وهي التوحيد والبعث والجزاء والعمل الصالح ، المبينة في الآية (٢ : ٦٢) وسأذكرها في أول الفصل ٣ ومتضمنة لاعجاز القرآن بقسميه اللغوي والعلمي ، وقد فصلناه بفضل الله وإلهامه بما لا نظير له في سائر التفاسير ، ثم ختمت بمثل ما تضمنه أولها من الآية (٩٩ الى ١٢٣) فالتقى قطراها واحتبك طرفاها ، وأحاطا بالقصص التي بينهما مؤيدة لما تذكر في أثنائها برهان [illegible] آخر قصة نوح (ج م) وهو الآية ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك) الخ ولعل حكمة تخصيص هذا بالذكر ما في هذه القصة من زيادة التفصيل والتأثير ببلاغته الممتازة ، وإلا فسائر هذه القصص من أنباء الغيب ودلائل اعجاز القرآن ، كما أشير اليه في الآية (١٠٠) وهي المقصودة بالذات ، فيسهل على المتفقه في القرآن أن يراجع تفسير هذه الآية مضمومة إلى كلامنا المفصل في إعجازه بقسميه المشار اليه آنفا من ص ٣١ إلى ٤٧ — وأن يتأمل الآيات الاربع والعشرين من أول السورة والآيات الخمس والعشرين من آخرها ، ليحيط بما في السورة من علوم رسالة خاتم النبيين علما إجماليا

واما بيان أنواعها مفصلة في السورة فيراها في الفصول التالية من هذا الباب وفي الابواب التي بعدها ويفقه سر افتتاحها بقوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وجعله عنوانا لها

﴿ الفصل الثانى ﴾

(في الهداية الإجمالية في قصص السورة وأصول الدين الثلاثة التي دعا اليها جميع الرسل)

قد بينا في الكلام على إعجاز القرآن العلمي الذي فصله في قصص الرسل (ع . م) وتكرارها أنها مشتملة فيه على عشرة أنواع كلية من العلم والهداية فراجعها أيها المتدبر المتفقه في الصفحة ٤١ — ٤٣ وتأملها إجمالا ، ثم تأمل ما في هذه السورة منها في الفصول التالية

وأما أصول الدين ففي قول الله تعالى (٢ : ٦٢) ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

(الاصل الاول) الايمان بالله تعالى وقد سبق في الباب الاول شواهده من قصص السورة كلها

(الاصل الثاني) الايمان باليوم الآخر وهو البعث والجزاء وسيأتي تفصيله في الباب الرابع

(الاصل الثالث) العمل الصالح وهو قسمان ما أمر الله تعالى به وما نهى عنه على ألسنة رسله (ع . م) بعد الامر بالتوحيد والنهي عن الشرك . وقد ذكر العمل الصالح باللفظ المجمل الدال على كل ما تصلح به أنفس البشر في موضعين من هذه السورة (الاول) قوله بعد بيان قسمي اليئوس الكفور والفرح الفخور من الناس (١١ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) الآية . (الثاني) قوله بعد ذكر الذين خسروا أنفسهم (٢٣ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وفي معناها الاحسان في قوله (٧ ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقوله (١١٥ إن الحسنات يذهبن السيئات)

وأما الاوامر والنواهي المفصلة فتذكر في الباب الخامس

﴿ الفصل الثالث ﴾

(في وظيفة الرسل الاساسية وصفاتهم وبيناتهم وفيه تسع مسائل أو عقائد)

(الاولى وظيفة الرسل الاساسية) هي ما بعثهم الله لاجله من تبليغ رسالته بانذار من تولى عن الايمان وعصى، وتبشير من أجاب الدعوة فآمن واهتدى، والشواهد عليها من هذه السورة قوله تعالى في دعوة رسوله خاتم النبيين (٢) إنني لكم منه نذير وبشير) وقوله له (١٢) إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) ومثل هذا الحصر في القرآن كثير، وقوله حكاية عن نوح (ع . م) وهو أول رسله الى الاقوام المشركة (٢٥ إني لكم نذير مبين) وقوله حكاية عن رسوله هود (ع . م) ٥٧ فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم)

وموضوع التبليغ هو الدعوة إلى أركان الدين الثلاثة المبينة آنفا وعليها مدار سعادة المكلفين في الدنيا والآخرة، وكلها مبطلة لما كان عليه أقوامهم المشركون من أن بينهم وبين الله تعالى وسائط منهم أو من غيرهم من خلقه يقربونهم اليه بجاههم الشخصي، ويشفعون [illegible] من جلب نفع أو دفع ضر بشفاعتهم لهم عنده، أو بتصرفهم في خلقه بما خصهم به من خوارق العادات، إلا ما جعله من آياته دليلا على صدقهم في دعوى الرسالة، كابراء عيسى عليه السلام للاكمه والابرص واحيائه الموتى باذن الله له، بأن دعاه في ذلك فاستجاب له وسيأتي بيانه

(الثانية أنهم بشر مرسلون) أي لا يملكون من أمور العالم شيئا مما هو فوق كسب البشر غير ما خصهم الله به من الرسالة دون شئون ربوبيته أو ما خص به ملائكته، حتى انهم لا يملكون هداية أحد إلى الدين بالفعل لان هدايتهم خاصة بالتبليغ والتعليم كما تقدم آنفا، وحكاية نوح مع ابنه الكافر حجة في هذا الموضوع واضحة، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة

و (منها) في هذه السورة ما علمت من آيات توحيد الربوبية، والرد على مشركي مكة في اقتراحهم مجيء الملك بقوله تعالى (١٢ فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك : انما

أنت نذير والله على كل شيء وكيل) وقوله حكاية عن نوح (٣١ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إني ملك) وتقدم ما في معناه عن خاتم النبيين ﷺ قريبا ، وفي معناه آيات كثيرة في السور الاخرى

(ومنها) في احتجاج المشركين على رسلهم بأنهم بشر في قصة نوح (٢٧ فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشراً مثلنا) وقد قال مثل هذا سائر أقوام الرسل بعده إلى خاتمهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين

ولو كان أولئك الرسل في عصرهم على غير ما يعهد أقوامهم من البشر ، بأن كانوا يتصرفون في الكون بالضر والنفع وعلم الغيب لما احتجوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما يدعي الذين ضلوا من أقوامهم من بعدهم عما جاؤا به مع دعوى اتباعهم ، فزعموا أنهم هم وبعض من وصفوا بالصلاح والولاية من أتباعهم يضرون وينفعون ، ويشقون ويُسعدون ، ويميتون ويحيون ، أحياؤهم وأمواتهم في هذا سواء ، بل يزعمون أنهم أحياء في قبورهم حياة مادية بدنية يأكلون فيها ويشربون ، ويسمعون كلام من يدعوهم ويستغيثون بهم ويستجيبون دعاءهم فيهم ، وقد يخرجون من قبورهم فيقضون حوائجهم في [illegible] ويخالفون بهذا [illegible] آيات القرآن المحكمات في التوحيد وصفات الربوبية ، وفي صفات الانبياء وكونهم بشراً لا يقدرون على شيء مما لا يقدر عليه البشر ، وأن النبوة والرسالة وآياتها ليست من كسبهم ، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فيما ورد فيه من بعض أنباء الغيب في حياة الشهداء البرزخية ، فيقيسون عليها بأهوائهم حياة أوليائهم رجماً بالغيب وافتراء على الله ، وحسبنا هنا التذكير بما أمر الله نبينا ان يرد به على الذين سألوه بعض الآيات الكونية (قل سبحان ربي : هل كنت الا بشرا رسولا ؟)

(الثالثة بيناتهم وآياتهم) ما من نبي دعا قومه إلى الله إلا وجاءهم ببينة على صدقه في دعواه من حجة عقلية وآية كونية ، وكانت تشتبه على عامتهم الآيات الكونية بالسحر لانهم يرون ان كلا منها أمر غريب لا يعرفون سببه ، ويرونه من الدجالين والمرتزقة ، وكان المهتدون هم الذين يميزون بين الفريقين بالبينات العقلية ، والهداية الخلقية والعملية ، وكذلك الجاحدون المعاندون منهم

يبنت لنا هذه السورة ان كل رسول كان يحتج ويستدل على قومه بأنه على بينة من ربه ، وليس فيها ولا في غيرها أن كلا منهم تحدى قومه بآية كونية كما تحدى موسى فرعون وملأه وكما تحدى محمد قومه والانس والجن معهم، ومن استطاعوا ليظاهروهم على معارضة القرآن بمثله في مزايا إعجازه العامة الظاهرة في كل سورة منه، ومزايا إعجازه المكررة في عشر سور مما ادعوا افتراءه منه ، ثم انه بعد التحدي بعشر مثله مفتريات في الآية (١٣) من هذه السورة ، وبعد تقرير عجزهم عن المعارضة في الآية (١٤) قال في تقرير الحجة العقلية والنقلية التاريخية (١٧ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة)

ثم قال في حجة نوح (٢٨ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم) الآية وحكى عن قوم هود أنهم (٥٣ قالوا يا هود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين)ولكنه كذبهم بعد ذلك بقوله عز وجل (٥٩ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) الآية

ثم قال في قصة صالح (٦٣ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة) الآية ، وذكر بعدها آيته الكونية التي أنذرهم العذاب بها فقال (٦٤ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) الخ ثم قال في قصة شعيب (٨٨ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا)الآية ثم قال (٩٦ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ٩٧ إلى فرعون وملائه) الآية

ومن المعلوم القطعي أن هذه الآيات وغيرها ليست من أعمال أولئك الرسل وكسبهم ولا في حدود استطاعتهم، فآية خاتمهم الكبرى هي كلام الله عز وجل كان عاجزا عن الاتيان بسورة مثله بعد النبوة فعجزه قبلها أظهر ، وناقة صالح لم تكن من خلقه ولا كسبه ، ولما رأى موسى آيته الكبرى وهي العصا إذ ألقاها فاذا هي حية تسعى ، ولى مدبرا خائفا منها ، كما ترى في سورتي النمل والقصص

وأما آيات عيسى التي أسند اليه فعلها فقد صرح القرآن بأنها كانت باذن الله تعالى وإرادته ، وفي رسائل الاناجيل المتداولة أنه كان يدعو الله تعالى ويتضرع اليه بطلبها ليؤمنوا به ويعلموا أنه يستجيب له ، وقد قال اليهود انها سحر مبين،

وأهل هذا العصر يوردون عليها شبهات من غرائب صوفية الهنود وغيرهم من الروحانيين، كما بيناه في كتاب الوحي المحمدي، وبينا أن آيات موسى كانت أعظم منها مظهراء، وأدل على قدرة الله تعالى وتأييده له، لاعيان أعلم علماء السحر بها، ولم تكن فتنة للناس بموسى كما كانت فتنة للناس بعيسى إذ اتخذوه بها إلهاء فالذين فتنوا وضلوا بخوارق العادات الصورية من الاولين والآخرين، أضعاف أضعاف الذين اهتدوا بالحقيقي منها ، فان الملايين من مدعي اتباع عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام يتبعون الدجالين المدعين للتصرف في الكون بأنفسهم أو باستخدامهم الجن، وسدنة قبور الاولياء والقديسين الذين يدعون التصرف لمن تنتسب اليهم ، وكل هؤلاء يجهلون حقيقة الايمان الذي بعث الله به جميع رسله ووظيفة رسالاتهم

(الخامسة حجة الرسل على أقوامهم باخلاصهم فيه وعدم طلب أجر على عملهم)

هذه المسألة مكررة في القرآن ومن الشواهد عليها هنا حكاية عن نوح قوله تعالى [٧٩ وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله] وتقدم عنه معناه في سورة يونس وسيأتي مثله في سورة الشعراء بلفظ الأجر [ومنها] عن هود [٥١ ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون] وراجع مثل هذا عن الرسل في سورة الشعراء [٢٦ : ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠]

وقد تكرر هذا عن نبينا ﷺ في عدة سور : الانعام (٦ : ٩٠] ويوسف (١٢ : ١٠٤) والشورى (٤٢ : ٢٣) ونص هذه الاخيرة بعد تبشير الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات (ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور) والاستثناء في هذه الآية منقطع ، والمعنى لا أسألكم عليه أجرا البتة ، سنة الله في النبيين المرسلين، ولكن أسألكم المودة في أولي القربى لكم وصلة أرحامكم ، وكانت هذه الوصية مما يجحدونه من هدي الاسلام لتعصبهم لانسابهم ، ويفسرها قوله تعالى (٣٤ : ٤٧ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد)

ولكن الشيعة جعلوا الاستثناء متصلا وفسروا المودة في القربى بمودة قرابته

ﷺ وخصوها بابن عمه علي وذريته عليهم السلام دون عمه العباس وذريته وسائر ذرية أعمامه ، واشتهر هذا التأويل الباطل في كتب التفسير والمناقب ودواوين الشعر ، وجعلوه عهداً من الله عاهد عليه المؤمنين كما قال شاعر العراق في عصره عبد الباقي العمري :

وعهد لا أسألكم عليه من   أجر لمن به الولا قد وجبا

وهذا التأويل تحريف للقرآن وطعن شنيع على رسول الله وخاتم النبيين ﷺ بإخراجه من سنة الله تعالى في جميع رسله بأنهم يبلغون رسالاته لوجهه الكريم لا يسألون عليه أجراً لأنفسهم ولا لأولي قرباهم ، وأنه هو الذي انفرد بطلب الأجر لأولي قرباه ، (وحاشاه) وهل يسعى جميع طلاب الدنيا إلا لذرياتهم ؟

وللتنزه من هذه الشبهة حرم الله تعالى الصدقة على آل رسوله وهم بنو هاشم ومن كان يواليهم من بني المطلب دون إخوتهم من بني أمية وبني عبد شمس الذين كانوا يعادونهم ، وموالاته [illegible] وآله [illegible] ولا حاجة إلى الاستدلال عليها بهذا التحريف للقرآن [illegible] لأنها من أم الكتاب

(السادسة : عصمتهم صلوات الله تعالى عليهم في تبليغ الدعوة والعمل بها)

من الشواهد عليها قوله تعالى (١٢ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك) الآية المراد منها انه لا يترك مما أوحي إليه شيئاً لا يبلغه (ومنها) قوله حكاية عن نوح (٢٩ وما أنا بطارد الذين آمنوا) الآية ، والنفي فيها للشأن ، أي ما كان طردهم من شأني ، ولا ما يقع من نبي مثلي ، فأنا معصوم من إجابتكم إليه فلا تطمعن فيها ، والوعيد عليه في الآية (٣٠) التي بعدها مبني على فرض وقوع الطرد منه المعبر عنه بأداة الشرط التي ليس من شأن فعلها أن يقع (ومنها) قول شعيب لقومه (٨٧ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وهو يدل على أن الرسول لا ينهى عن شيء لا ينتهي هو عنه ، فهو لا يخالف رسالته في شيء ، إذ لو خالفها لدحض حجته ، ونقض دعوته ، (ومنها) قوله لهم (٩٣ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل) الآية وما فيه من الوعيد

فإن قيل : إن أمر الله تعالى ونهيه لهم بالتكاليف ووعيده على المخالفة والمعصية

الشامل لهم ولأقوامهم والخاص بهم كقوله تعالى لنوح (٤٦ أني أعظك أن تكون من الجاهلين واستعاذة نوح به تعالى من مخالفة الموعظة وقوله (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الجاهلين) وحكاياتهم عن أنفسهم ما يعملون وما يتركون - كل هذا وأمثاله يدل على جواز وقوع المعصية منهم لا استحالته، وفي بعضه ما يدل على وقوع الذنب بالفعل، ومنه سؤال نوح ربه نجاة ولده الكافر، وكونه من سؤال ما ليس له به علم، وهو منهي عنه

«قلت» ان المتكلمين استدلوا على ما سموه عصمة الانبياء بالعقل لا بالنقل، وتأولوا الآيات والاحاديث الواردة بوقوع الذنوب منهم تلك الدالة على إمكانها، وليس المراد بدلالة العقل على عصمتهم انها كعصمة الملائكة منافية لطباعهم، فان ما فضلوا به على الملائكة انهم بشر كسائر البشر جبلوا على الشهوات الجسدية، وداعية كل من المعصية والطاعة، كما علم من قصة أبيهم آدم، ولكنهم بقوة الايمان ومعرفة الله عز وجل والخوف منه والرجاء فيه والحب له يرجحون الطاعة على المعصية بملكة راسخة فيهم، ويعصمهم الله تعالى بها من الخطأ في التبليغ ومن الكتمان لشيء مما امروا به منه، ومن مخالفته، ومن الرذائل والمعاصي المنافية للرسالة، المبطلة للحجة، دون الخطأ في الاجتهاد والرأي، الذي لا يخالف مدلول الوحي، فاذا وقع منهم بهذا الاجتهاد ما كان الخير والكمال لهم في علم الله خلافه بينه الله لهم تعليما، وعلمهم ما هو الأليق بهم تربية وتكميلا، ومنه اجتهاد نوح الذي رجحه بالحنان الابوي جواز دخول ابنه الكافر فيمن وعده الله بنجاتهم كما بيناه في موضعه، ولم يعلم ان سؤاله ربه ما ليس له به علم قطعي ممنوع إلا بعد أن سأله نجاة ولده فأجابه بهذه الموعظة، وقد فصلنا هذه المسألة في تفسير أخذ النبي ﷺ الفداء من أسرى بدر من سورة الانفال [٨: ٦٧] وتفسير عتابه على الاذن لبعض المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك والعفو عنه من سورة التوبة [٩: ٤٣]

﴿ السابعة : كمال إيمانهم وثقتهم بالله وتوكلهم عليه وشجاعتهم ويقينهم بعاقبة أمرهم ﴾

هذه المزية الجامعة لعدة من مزاياهم ظاهرة أوضح الظهور في كل قصة من قصصهم إذ هي عبارة عن تصدي رجل واحد من وسط قوم لتجهيلهم في تقاليدهم الدينية الموروثة ودعوتهم لتركها إلى ماهو خير منها في حقيته وكماله وحاله ومآله ، وتوبيخهم على الاصرار عليها ، وانذارهم سوء عاقبتها ، وعدم مبالاته بكفرهم به ، وسخريتهم منه، وتهديدهم له ، ومقابلته لذلك بما هو أشد منه، كما ترى في الآيتين (٣٨و٣٩) من قصة نوح وما هو أشد منها في معناها من سورة يونس (١٠ : ٧٦) التي صرح لهم فيها باعتصامه بالتوكل على الله وأمرهم باجماع أمرهم وشركائهم والتثبت فيه والقضاء اليه بما يجمعون عليه من عقابه بدون انظار ولا امهال ، وفي معناه من هذه السورة الآيات (٥٥ ـ ٥٧)

﴿ الثامنة ﴾ انذارهم الاخير لاقوامهم وقوع عذاب سماوي بهلكهم، ويقطع دابر المعاندين المصرين على جحودهم وظلمهم ، ووقوع ذلك كله كما بلغوهم عن الله تعالى بلا تأخير ولا تقديم

﴿ التاسعة ﴾ احتجاج المتأخر من هؤلاء الرسل على قومه بما وقع لمن قبله من الرسل مع أقوامهم المعروفين عند قومه كما ترى في انذار شعيب قومه ذلك في الآية (٨٩) وفي سورة الاعراف تذكير هود قومه بقوم نوح قبلهم، ثم تذكير صالح بقوم هود من قبلهم، وقد أنذر محمد ﷺ قومه بجميع هؤلاء الاقوام وماحل بهم. فدل على أنه وقع بأمره عقابا لهم ، وان كان موافقا لسنته تعالى في الاسباب العامة

وجملة القول في قصص الرسل مع أقوامهم وما فيها من أصول دين الله تعالى « الاسلام » ومن سنته تعالى في تبليغهم له وهدايتهم وفضائلهم وضلال المكذبين لهم وظلمهم وفسادهم — أنها دلائل واضحة على رسالة خاتمهم محمد ﷺ واعجاز كتابه وكونه من عند الله تعالى أكمل به دينه ، ووجوه الدلالة فيها كثيرة : من عقلية وعلمية واجتماعية وتاريخية وغيبية ، وقد فصلناها في « كتاب الوحي المحمدي » تفصيلا .

(الباب الرابع في البعث والجزاء)

آيات البعث في القرآن نوعان (أحدهما) لدعوة المشركين إلى الايمان به والاستدلال على قدرة الخالق تعالى عليه وإزالة استبعادهم له وتقريبهم من ادراكه بضرب الامثال له (والثاني) لتذكير المؤمنين به للترغيب والترهيب والموعظة، والجزاء قسمان أيضاً : جزاء المؤمنين المتقين الصالحين، وجزاء الكافرين الظالمين المجرمين ، ولكل من البعث والجزاء بقسميه ألوان من البيان الرائع العجيب ، وأساليب في التعبير البليغ ، وكل من النوعين والقسمين يجتمعان ويفترقان في التعبير عنها والخطاب بهما بتلك الاساليب المختلفة في الآية والآيتين والآيات، ولكل منهما تأثيره في الخوف والرجاء ، يحمل التكرار الضروري لتثبيت المعاني في النفس غير مملّ للسمع ، ولا مستثقل للطبع ، وهذا من أبدع ما يمتاز به كلام الرب المعجز على كلام خلقه ، فتأمل ذلك وتدبره في الشواهد الآتية

(١ و٢) تأمل قوله في أول السورة بعد ذكر الانذار والتبشير، والتخويف من عذاب يوم كبير (٤ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) ثم تأمل قوله بعد ذكر خلق السموات والارض إذ كان عرشه على الماء ليبلو العقلاء المكلفين أيهم أحسن عملا (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) فالآيتان من نوع الاستدلال على البعث والجزاء معاً بأن الخالق القدير ، ذي الحكمة البالغة في التقدير والتدبير ، لاتظهر عظمة قدرته وسر حكمته في تقديره ، إلا باختبار عباده الذين وهبهم العقل والتمييز بين الحق الذي تتجلى به الحكمة في الخلق، والباطل العبث المنزهة عنه، وبالجزاء على ما يعملون من خير وشر ، وحسن وقبيح وهذا الجزاء لا يكون تاما عاما في الدنيا لقصر أعمارهم فيها ، فدل على أن الحكمة الربانية تقتضي أن يكون في حياة بعد هذه فكل ما يدل على ربوبيته تعالى وحكمته وعدله يدل على البعث والجزاء لانه من لوازمها

وإن ما بعد هذا من الآيات في رسالة نبينا ﷺ قد تكرر فيه جزاء الكافرين والمؤمنين في الآخرة لان مشركي العرب كانوا أكثر جدالا من كل قوم في البعث بعد الموت فترى بعدها كل جدال نوح وصالح لقومه في عقيدة التوحيد في العبادة دون البعث، وزاد شعيب مسألة الامر والنهي في مسألة المكيال والميزان، وانحصر انذار لوط في النهي عن الفحشاء والمنكر، ثم ختم الله العبرة بهذه القصص بهلاكهم في الدنيا وعدم إغناء آلهتهم عنهم من شيء، وهو دليل التوحيد وبعذاب الآخرة إذ عاد الكلام كما بدأ في إنذار مشركي أم القرى وما حولها من العرب فذكر اليوم الآخر وما فيه بتلك الآيات البليغة الممتازة (١٠٣ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) - الآيات - ولما بين فيها جزاء كل من فريقي الاشقياء والسعداء، وخلودهم في النار والجنة استثنى بعد كل منهما استثناء لم يسبق له فيما قبله ولا فيما بعده من القرآن المطير في ذاته ولا في التفرقة بينهما وهو قوله في أهل النار (خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) وفي أهل الجنة (خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ)

حار في هذا الاستثناء والتفرقة فيه المفسرون من علماء الآثار والمتكلمين والصوفية لتعارضه في الظاهر مع الآيات الكثيرة في خلود الفريقين وتأكيد بعضها بكلمة التأبيد ولكن أكثره في المؤمنين أصحاب الجنة حتى في الآيات التي فيها المقابلة بين الفريقين كما تراه في سورة النساء (٤ : ٥٦ مع ٧٥ و١٢١ مع ١٢٢) وفي سورة التغابن (٦٤ : ٩ مع ١٠) وفي سورة البينة (٩٨ : ٦ مع ٨) ففي هذه الآيات يؤكد خلود المؤمنين في الجنة بالتأبيد دون خلود الكافرين في النار، كما يؤكده في آيات أخرى من سور كالنساء والتوبة والمائدة والطلاق بدون مقابلة،

ومثل هذه الفروق لاتأتي في الذكر الحكيم جزافا أو عن غفلة ككلام البشر بل يتعين أن يكون لها حكمة في التشريع، ونكتة في بلاغة التعبير ، ولا يقدر

على الغوص في هذا البحر الخضم واستخراج أمثال هذه الدرر منه الا الجامع بين اسرار العلمين ـ علم حكم التشريع وعلم اسرار البلاغة ـ ولقد كان أقرب ما يقال في تلك الآيات أنها بمعنى الاستثناء في هاتين الآيتين المشار منها في ذاتها وهو التفرقة بين الجزاء بالفضل فوق العدل الذي يضاعف من عشرة اضعاف الى سبعمائة ضعف ، والجزاء بالعدل والمساواة الذي لا يظلم فيه مثقال ذرة ، وما فوقه من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ولكن يقف في طريق هذا الفهم على وضوحه أن التأبيد أكد به جزاء الذين كفروا وظلموا في أواخر سورة النساء (٤:١٢٨) وجزاء الذين لعنهم الله منهم في سورة الاحزاب (٣٣ : ٦٤) وجزاء العصاة في سورة الجن (٧٢ : ٢٣ ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) والقواعد تقتضي حمل العصيان هنا على ما لترك الايمان بمعنى الشرك

على أننا بينا في تفسير ما تقدم من الآيات في الخلود والتأبيد معناهما اللغوي وانه لم يكن عند العرب لفظ نصا ولا غيرها يدل على التأبيد بالاصطلاح الشرعي وهو عدم النهاية في الوجود وان قدرت بالوف الالوف وما لا يحصى من السنين

وبينا في تفسير الاستثناء هنا وفي سورة الانعام ان جمهور المفسرين تأولوه لموافقة المقرر في العقائد من أن خلود أهل النار كأهل الجنة ، وان بعضهم حمله على ظاهره لانه معارض بنصوص القرآن والحديث الصريحة في سعة رحمة الله وعدله وكون العقاب عنده على قدر الذنب لان الزيادة ظلم وهو محال على الله عز وجل عقلا ونقلا ، وكنت وعدت بأن أذكر هنا كل ما قاله العلماء في هذا الموضوع ثم رأيت الآن ان لا حاجة اليه بعد ان وجهت تفسير الاستثناء بما يجمع بين النصوص المتعارضة الظاهر وما سبق في تفسير آية الانعام (٦ : ١٢٧ ص ٦٨ ـ ٩٩ ج ٨ تفسير طبعة أولى) وهو ما بسطه المحقق ابن القيم من دلائل الفريقين وقد تعرض لهذا الموضوع من المفسرين المتأخرين القاضي الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) وتبعه السيد حسن صديق خان في تفسيره (فتح البيان) وكل منهما مطبوع فليراجعهما من شاء (للخلاصة بقية)

تفسير سورة الكوثر (١٠٨)

(وهي مكية وآياتها ثلاث)

من المعلوم القطعي في القرآن أن كبراء قريش في مكة كانوا يعيرون النبي ﷺ بفقره وضعفه ، ويتربصون به ريب المنون لانتهاء أمره ، وانقطاع ذكره ، وورد في الروايات عن أشدهم شنآنا له كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب أنهم كانوا يشمتون بموت أولاده الذكور ويقولون بقي « أبتر » أي انقطع عقبه فلم يبق له من يذكر به ، فنزلت هذه السورة المعجزة بإيجازها وإعجازها مفندة لباطلهم ثم جاء الزمان مصدقا لها ومكذبا لهم .



(إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر)

(إنا) بما لنا من القدرة على كل شيء ، (أعطيناك) أيها الرسول من خيري الدنيا والآخرة (الكوثر) أي الشيء الكثير الذي لا تحد كثرته ولا تحصر ، من الدين الحق ، وهداية الخلق ، ومالا يحصى من الأتباع ، ومالا يحصر من الغنائم والنصر على الأعداء ، ومالا ينقطع من الذرية التي تنسب إليك فتذكر بذكرهم ، ويصلى ويسلم عليك وعليهم ، ثم من الشفاعة العظمى يوم الفزع الأكبر ، والحوض الذي يرده المؤمنون في المحشر ، فلفظ الكوثر يشمل كل هذا وغيره ، وإنما يكون كل نوع منه في وقته ، وكان الاخبار به في أول الاسلام من البشارة ونبأ الغيب

وذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه كقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أو على معنى الانشاء وهو أنه تعالى قدره وأمضى حكمه به

ووصل تعالى هذه البشارة العظمى بالامر بشكرها فقال (فصل لربك) أي مربيك وكافلك ومتولي أمرك الذي من عليك بهذه النعم وحده مخاصاً له الدين (وانحر) ذبائح نسكك له وحده — فهو كقوله تعالى (٦: ١٦٢ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) وهذا يدل على أنه سيكون له الغلب على المشركين، الذي به يفتح مكة ويحجه ونسكه مع أتباعه — وقد كان — ونحر ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة (ناقة) فهذه بشارة خاصة ، بعد تلك البشارة العامة ، وكلاهما من أنباء الغيب

ثم قفى على ذلك ببشارة ثالثة هي تمام الرد على أولئك الطغاة المغرورين بأموالهم وأولادهم أوردها مفصولة غير موصولة بالوصف على ما قبلها لانها جواب عن سؤال تقديره : وماذا تكون عاقبة شانئيه ومبغضيه الذين رموه بلقب «الابتر» وتربصوا به الدوائر ، لما يرجون من انقطاع ذكره ، واضمحلال دعوته ؟ فأجاب (ان شانئك) أي مبغضك وعائبك بالفقر وفقد العقب (هو الابتر) من دونك — وهذا إخبار آخر بالغيب قد صح وتحقق بعد كر السنين ، ولفظ شانيء مفرد مضاف فمعناه عام ، فهو يشمل العاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وغيرهما ممن نقل عنهم ذلك القول فيه ﷺ لفظا أو موافقة لاخوانهم المجرمين ، فقد بتروا كلهم وهلكوا ، ثم نسوا كأنهم ما وجدوا ، وزال ما كانوا يرجون من بقاء الذكر بالعظمة والرياسة وكثرة الولد والعصبية ، فلم يعد أحد منهم يذكر بخير ، ولا ينسب له عقب يفتخر به .

فأنت ترى أن هذه السورة على ايجازها في منتهى الفصاحة والبلاغة ، قد

جمعت من المعاني الكثيرة الصحيحة ومن أنباء الغيب التي فسرها الزمان ما تعد به معجزة بينة الاعجاز، وفيها من المعاني واللطائف غير ما ذكرنا فيراجع تفسيرها في مفاتح الغيب وغيره من المطولات، ير فيها العجب العجاب

(تم تفسير سورة الكوثر ولله الحمد)

تفسير سورة الكافرون (١٠٩)

(وهي مكية وآياتها ست)

روي في أسباب نزول القرآن وأخبار السيرة النبوية أن كبراء مشركي قريش كانوا يطمعون في اقناع النبي ﷺ بالكف عن تفنيد شركهم، وتحقير آلهتهم على أن يجزوه بالاعتراف له بالرياسة، وغنيمة الثروة، حتى قيل إن الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف وهم من أشد المعاندين له ﷺ قالوا له: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فأنزل الله هذه السورة إيئاسا لهم، وإيذانا بالبراءة من دينهم الباطل وعبادتهم الشركية المخترعة. وسواء أصح هذا أم لم يصح، السورة نزلت في هذا المعنى لاقتضاء الحال لها في بيان الفصل بين التوحيد والشرك في الحال والاستقبال.

وهاك خلاصة معناها الذي تستحضره عند قراءتها في الصلاة وغيرها، والخطاب للنبي ﷺ ثم لجميع المؤمنين به.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَـٰفِرُونَ ٭ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٭ وَلَا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٭ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ٭ وَلَا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٭ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

(قل يا أيها الكافرون) بالله الذين اتخذتم له أندادا تحبونهم كحب الله أي من جنس حبه لا من جنس حب المخلوقات بعضهم لبعض ، اذ تزعمون أنهم ينفعون ويضرون بتصرف غيبي خاص بهم او بشفاعتهم عند الله ، فتتوجهون اليهم عند وقوع الشدائد والمصائب ، والحاجة الى ما تعسر او تعذر سببه من الرغائب ، فتدعونهم لكشف الضر وجلب النفع (لا أعبد ما تعبدون) أي لا أعبد ما عبدت ما تعبدون من آلهة اتخذتموها وجعلتم رب العالمين واحداً منها ، أو إله فيدتم سلطانه المطلق بشفاعتها ووساطتها ، وانما أعبده وحده مخلصا له الدين ، وأوجه وجهي اليه حنيفا أي مائلا عن غيره وما أنا من المشركين ، فجملة (لا أعبد) تدل على نفي هذه العبادة لمن يعبد كل منهم في الاستقبال مع الاستمرار

(ولا أنتم عابدون) في الحال التي أنتم عليها (ما أعبد) أي الإله الذي أعبده أنا وهو الرب الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، [illegible] المنزه عن الشرك كله ، من الشفعاء والاولياء (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) ولم ينف عبادتهم في المستقبل للرب الذي يعبده الرجاء في ايمانهم بدين التوحيد

(ولا أنا عابد ما عبدتم) أي ولا أنا عابد في وقت من الاوقات عبادتكم أي عبادة مثل عبادتكم التي جريتم عليها الى الآن وأنا أدعوكم الى تركها (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي عبادتي (فما في هاتين الجملتين مصدرية ، وفي اللتين قبلها موصولة) والمعنى أن عبادة كل منا تخالف عبادة الآخر ، كما أن معبود كل منهما يخالف معبود الآخر ، فعبادتي قد أمرني بها ربي ، وعبادتكم ابتدعتموها بأهوائكم ، أو آراء رؤسائكم ، وعبادتي خالصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك معه

(لكم دينكم) الذي ابتدعتموه أو ابتدعتم فيه ما لم يأذن به الله ، (ولي ديني) الذي اوحاه إلي ربي لا شائبة فيه ، وبينهما غاية الخلف والمباينة في صورتها

ومضارها وتأثيرها في النفس ، فديني مصلح للبشر افرادهم وجماعاتهم بمعرفة الله وتنزيهه وتزكية الانفس من رذائل الفواحش والمنكرات ، وإقامة الحق والعدل والمساواة بين الناس فيهما ، ودينكم بضد ذلك كله ، فان منكم من ينكر البعث والجزاء على الاعمال ، ومنكم من يحمل الجزاء الالهي في الدنيا والآخرة بالمحاباة وشفاعة الوسطاء المزعومين بين الله والناس ، وكل من هذا وذاك مانع من تزكية النفس والعروج بها الى سماء الكمال .

(١١٢) ســـورة الاخلاص

وهي مكية وآياتها أربع

هذه السورة مكملة ومتممة لسورة الكافرون من حيث إن الاولى نافية لعقائد الكفار و[illegible] التوحيد وهادمة لعقائد الشرك بجميع أنو[illegible] اذا صلى ركعتين خفيفتين كركعتي سنة الصبح وتحية المسجد والطواف ، وقد أفردها غير واحد من العلماء بتفسير خاص لعل أجلها تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله

روى الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله (قل هو الله أحد) الى آخرها وأخرج الطبراني وابن جرير مثله من حديث جابر بن عبد الله وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن جماعة من اليهود قالوا للنبي ﷺ : صف لنا ربك الذي بعثك ، فأنزل الله (قل هو الله أحد) الى آخرها ، وظاهر هذا أنها مدنية ، وما قبله أنها مكية ، والاول أقوى سنداً ومعنى، ويحمل الثاني على أنه ﷺ تلاها على اليهود عند ما سألوه فظن الراوي أنها نزلت وقتئذ

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ٭ اللهُ الصَّمَدُ ٭ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٭ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

(قل) أي قل أيها الرسول فيما تبلغه للناس من معرفة الله وتوحيده وتنزيهه، ولمن سألك من الكفار أن تنسب لهم ربك أو عن صفاته ، (هو الله أحد) ضمير هو يعود الى المسئول عنه إذا صح ان السورة نزلت عقب السؤال ، اوهو الضمير الذي يسمونه ضمير الشأن والحديث أو القصة فلا يحتاج إلى مرجع ، ومعناه الشأن المعظم الذي يجب ان يعرفه كل عاقل ، ان الله أحد ، أي واحد وحدة حقيقية غير قابلة للتعدد والكثرة في ذاته ، لا في [illegible] ولا في ملكه ولا في ألوهيته ، فهو غير مركب من أصلين كما زعمت الثانوية ، ولا من ثلاثة أصول أو أقانيم كما زعم المثلثون من [illegible] النصارى . على خلاف أصل دين موسى وعيسى ومن قبلهما من النبيين

(الله الصمد) معنى كلمة الصمد في اللغة السيد الذي يصمد اليه ويقصد لقضاء الحوائج ، والجملة هنا تفيد الحصر ، أي إن الصمد هو الله تعالى وحده ، فهذه الصفة لا تليق بل لا تصح إلا له عز وجل ، لانه هو القادر على قضاء كل ما يحتاج اليه عباده من الحاجات وكفايتهم جميع ما يعجزون عنه من المهمات ، بما يسخره لهم من الاسباب ، وما يهديهم اليه من سننه فيها

فلو كان مبتدعة عبادة القبور وأسرى الخرافات يفقهون معنى هذه الكلمة ويؤمنون بها إيمانا اذعانيا صحيحا ملك قلوبهم ، لما صمد أحد منهم الى قبر أحد من الصالحين ، ولا الى رجل حي من المعتقدين ، ولا الى دجال يدعي استخدام الجان وتسخير الشياطين ، ليقضي له ما عجز عنه من منافعه ومصالحه ، أو من دفع الاذى عن نفسه واهله وولده ، فان هؤلاء الأحياء الدجالين كالموتى من الصالحين ، عاجزون كلهم عما يظنه الجاهلون فيهم من التصرف في عالم الغيب

والشهادة ، وقد يفترون ببعض مايجهلون حقيقته من شعوذة وحيل، أو مصادفات يوجد امثالها عند امثالهم من جميع أهل الملل ، ولكن هذا الغرور لاسلطان له على الموحدين المؤمنين بوحدانية الله تعالى

(لم يلد ولم يولد) لأنه ليس بمخلوق له مزاج وجنس نشأ عن غيره ونشأ غيره عنه، فتكون الربوبية والألوهية أسرة وعشيرة كسائر الأحياء الحادثة التي يتوقف وجود بعضها على بعض ، بل هو أحد ، لا شيء قبله ولده ، ولا شيء مثله ولد منه ، فيحل محله ، بل هو ازلي أبدي سرمدي منزه عن مشابهة كل ما في العالم من الاجناس المتسلسلة من الافراد البسيطة والمركبة ، والمقتضي عن الوالدية والمولودية وهما نقص في حقه يستلزمان الحاجة ، وينافيان الربوبية والالوهية

فلو كان تبارك وتعالى مولودا لكان حادثا مسبوقا بالعدم الذاتي في نفسه ، ولجاز ان يكون والده مولودا [illegible] وكذا [illegible] والده ، ويتسلسل الجواز الى ما لانهاية له في الماضي ، ويستلزم [illegible] أن يكون المخلوقات أرباب آلهة لاعدد لهم ، وهو غير معقول ولم [illegible] به أحد [illegible] منهم

ولو كان تعالى [illegible] أو لوجب أن يكون له أولاد لاعدد لهم ، ولو كان يكون ولده مثله لزم أن يكون الخلق آلهة لا تحصى أيضا . ولم يقل بهذا أحد منهم

أجمع انبياء الله تعالى وحكماء البشر المثبتون لوجود إله لهم على أن الاله يجب شرعا وعقلا أن يكون واحدا ، لأن التعدد غير معقول ويترتب على القول به نقائص كثيرة ، ولهذا ادعى القائلون بالتثليث أن الثلاثة واحد فرارا من نقائص التعدد ، وحاولوا أن يجعلوه تعدداً صوريا أو اعتباريا لا حقيقيا

ثم ان كل ما يحتاج البشر ومادونهم من الاحياء الى الاولاد لأجله لا يتأتى مثله في الخالق تعالى بل هو غني عنه فهو لا يضعف ولا يعجز فيعينه ولده ، ولا يموت فيخلفه ويحفظ ذكره ، وليس له أقران فيفاخرهم بكثرة ولده ، ولذلك قال تعالى (١٠ : ٦٨ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني ، له ما في السموات وما في الارض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، اتقولون على الله ما لا تعلمون ؟)

(ولم يكن له كفوا احد) الكفؤ النظير المكافىء ، أي ليس له تعالى مثل ولا ند في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله كما زعم عابد والشيطان من الوثنيين ، وكما متخذو الانداد للوساطة والشفاعة عنده تعالى من الكتابيين ، فالسورة أبطلت جميع أنواع الشرك الذي ضل به البشر في كل جيل وزمن ، وشبهة المبتدعة من المنسوبين الى الرسل عليهم الصلاة والسلام هي شبهة الوثنيين من قبلهم بعينها ، يقولون إننا ملوثون بالخطايا والذنوب فلا يليق بنا أن نتوجه الى الله وحدنا ، بل لا بد لنا من واسطة بيننا وبينه من أوليائه يقربنا اليه زلفى ، وقرىء (كفوا) بالواو وبالهمزة وبضم الفاء وسكونها

روى البخاري والنسائي من حديث أبي هريرة رفعه « قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من اعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »

تفسير المعوذتين

بين الله تعالى في كتابه الكريم لعباده كل ما يحتاجون اليه من توحيده ومعرفته وعبادته وأحكام شرعه وحكمه ، لتزكية أنفسهم واعدادها لسعادة الدارين بقدر الاستعداد البشري ، وافتتحه بالسبع المثاني (الفاتحة) التي اجمل فيها أصول الهداية لهم ، وختمه بهاتين السورتين اللتين حذرهم فيهما من مصادر الشر الظاهرة والباطنة في هذه الحياة الدنيا ليعوذوا بالله منه ، ويتذكروا ماينبغي لهم من اتقاء أسبابه

واعلم أولا ان الشر اسم جامع لمعاني الضار والمساوىء والمفاسد ، وما يضاد

الخير الجامع لمعاني النافع والحاسن والصالح ، والخير هو الاصل في المخلوقات ، والشر عارض أو نسبي ، فقد يكون ماهو خير لأناس شراً لآخرين من حيث النفع والضر والعكس ، فالماء الذي هو الاصل للحياة النباتية والحيوانية خير عظيم بمنافعه الكثيرة وقد يضر بكثرته فيغرق بعض الناس والحيوان والزرع ، ويقوض بعض الابنية ، فيكون شراً لمن أصابه ضرره لا لذاته ، وسم الافاعي والثعابين والعقارب والنحل والزنابير هو سلاحها الذي تحارب به أعداءها فيضرهم ، وقد ثبت أنه دواء وترياق يشفي بعض الادواء بل جميع السموم أدوية ، وما خلق الله شيئاً الا وفي خلقه حكمة وفائدة ، وإنما الشر في بعضها أمر عارض أو نسبي كما تقدم ، وليس فيها شر محض في ذاته وجنسه ، ولا في مقتضى فطرة الاحياء أن تعمله وإنما فطر الله الاحياء على العمل النافع لها بما فيه من حفظ حياتها الشخصية والنوعية ودفع الضرر عنها بحسب إدراك [illegible]

حتى إن الشيطان لم يخلق [illegible] الشياطين هم الفساق المجرمون من الجن المكلفين ، وليس [illegible] الإنس بالوسوسة والاغراء بالمعاصي بأشد [illegible] من أبناء جنسهم ، بل إيذاء الانس لانفسهم أشد

العقلاء من الثقلين هم الذين يدركون مافي أعمالهم لمنافعهم ودفع المضار عنهم من التعارض ، وما يقتضيه من وضع حدود لحق كل من أفرادهم وجماعاتهم فيها «أي المنافع والضار» حتى لايبغي بعضهم على بعض ، وقد فعلوا ذلك من أول عهدهم بالحياة الاجتماعية ، وحدوث التنازع بينهم فيها ، ولكنهم كانوا وما زالوا يتبعون أهواءهم في وضع هذه الحدود ثم في العمل بها ، فيحكم الاقوياء أطماعهم في الضعفاء ، ومن ثم كان صلاح حياتهم المدنية متوقفاً على هداية دينية يكون لها الحكم المطاع بوازع العقيدة فيما يقع بينهم في الاجتماع من التنازع ، واختلاف الاهواء والمطامع ، وهو البرهان الفطري على حاجة البشر إلى الدين الموحى به من ربهم عزوجل كما فصلناه في محله من التفسير وكتاب الوحي المحمدي

وقد ثبت بالتجارب في الامم المختلفة ان الناس تقل بينهم الشرور بقدر

اعتصامهم بالدين الصحيح عن ايمان وإذعان ، وإن قلت علومهم بفلسفة الشرائع والقوانين البشرية ، والآداب العرفية، وغيرها من العلوم والفنون ، وتكثر بضعف الدين حتى تكون العلوم والفنون من وسائل التفنن فيها

واعتبر ذلك بقلة البغي والعدوان والفواحش في أكثر بلاد جزيرة العرب المسلمة، وتفاقم شرورها في أوربة وأمريكة ، سواء من الفريقين أفرادهم وجماعاتهم ودولهم ، وتأمل في الحرب الاخيرة بين إمامي دولتي الجزيرة السعودية والمتوكلية، والسرعة التي انتهت بها بالصلح الشريف الذي عقد بينهما ، والموازنة بينها وبين الحرب بين دول أوربة وأمريكة قديما وحديثا ، وكل صلح يعقدونه كيف يبرمونه على دخل ، ثم ينقضونه أنكاثا بضروب التأويل والحيل

أكثر الشرور في البشر من أنفسهم، وإنما الباعث عليها هو الجهل بحقيقة المنافع والمضار، أو بالترجيح بين ما يتعارض منها باتباع الهوى ، وسببه فساد الاعتقاد والاخلاق ووسوسة [illegible] ، وهاتان السورتان ترشدان المؤمن إلى اجتناب جميع الشرور وبواعثها [illegible] والاستعاذة بالله عز وجل والاعتصام به للتغلب عليها (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم)

---

(١١٣) سورة الفلق وهي مكية وآياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

تقول (أعوذ) بكذا، أو عاذ به فلان يعوذ عوذاً (كقال يقول) أي اعتصم واحتمى به. وكانوا في الجاهلية يعوذون بعظماء الجن من أذى من دونهم فيقول من نزل واديا : أعوذ بعظيم هذا الوادي . قال تعالى (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) أي زادوهم طغيانا وبغيا بزعمهم وبغشيانهم

بهذه الاستعاذة الخرافية . ويصح هذا في كل منهما ، و (الفلق) بالتحريك الصبح من الفلق بفتح فسكون كالفرق والشق فان ضوءه يشق ظلام الليل . ومنه (إن الله فالق (الحب والنوي) أي عند بدء إنباتهما ، إلى قوله (فالق الاصباح) و (الشر) الضر والاذى و (الغاسق) ظلام الليل في أوله . ومنه (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) أي أوله وفيه صلاة العشائين ، ويقال غسق القمر إذا أظلم بخسوفه . و (وقب) وقباووقوبا اشتد ودخل في كل شيء و(النفاثات) جمع نفاثة من النفث ، وهو النفخ مع إلقاء شيء قليل من البزاق كالتفل (وبابهما ضرب) و(العقد) جمع عقدة (كغرفةوغرف) وهي معروفة وينفثفيها بريق من الم لاجل أن تلين فيسهل حلها ، وينفث الراقي فيها أيضا عند عقدها ، و (الحاسد) من يكره النعمة على غيره فيتمنى زوالها منه .

(قل أعوذ برب الفلق) أي قل أيها المؤمن أعوذ وأعتصم بالله رب الفلق وهو الصبح الذي يفلق [illegible] النظام لهذه الشمس وسياراتها بحسبان [illegible]) أي من كل ضرر وأذى يصيبني من أي شيء خلقه تعالى في هذا الطور من الزمان الذي يبتدىء بفلق هذا الصباح وهو عامة نهار الذي تحدث فيه أكثر أعمال الناس وغيرهم من الحيوان ، من كسب الارزاق ، والتنازع في أعمال الحياة ، من جهاد وخصام ، وكيد واحتيال ، وبغي وعدوان ، وهي مثار أكثر الشر بين الناس

(ومن شر غاسق) أي ومن شر ما يقع في ظلام الليل الذي يغسق عقب زوال النهار بغروب الشمس (إذا وقب) أي اشتد ودخل في كل شيء حتى ملا الافق ، وخفي به على الانسان ما يدب فيه من الهوام السامة ، والوحوش المفترسة ، واللصوص المستخفية ، وعسر عليه من وسائل الدفاع عن نفسه وأهله وماله مايسهل في النهار ، ومن ثم قيل في الامثال « الليل أخفى للويل »

والاستعاذة من هذين الشرين تشمل جميع الشرور في كل زمان من ليل

ونهار روى مسلم من حديث ابن مسعود في دعاء الصباح والمساء أن النبي ﷺ كان يقول «اللهم إني أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها » ويقول في دعاء الصباح مثل هذا

(ومن شر النفاثات في العقد) الذي لا يعرف له وقت من ليل أو نهار يتقى فيه وتتخذ الوسائل لاجتنابه ، والمحترسون له صنفان من الناس يقترف كل واحد منهما طائفة من النفث في العقد ، وهو جمع نفاثة وتطلق على الرجل والمرأة لأنه صيغة مبالغة كعلامة وولادة

(الطائفة الاولى) منتحلوا السحر بالدجل والشعوذة والحيل الخفية ، والتأثير بتوجه النفس وقوة الارادة (ومنه ما عرف للجمهور في هذا العصر مما يسمى التنويم المغناطيسي) ومن الوسائل القديمة لسحر هؤلاء عقد يعقدونها في خيط مثلا لمنع الرجل من أداء وظيفة الزوجية في نفسها قبل الدخول غالبا ، ومنها عقد يحلونها لإزالة هذا المنع [illegible] عند ذلك أن يقرؤا شيئا مما يسمونه العزائم [illegible] في نفسها ولا في خاصية خفية فيها ، [illegible] الوهم عليهم إذا أعلموا بأنهم سحروا أو عقدوا (بالبناء للمجهول) ويقع لبعضهم بقوة توجه الارادة والعادة المعروفة في هذا من علم النفس أن هذا التأثير لا يكون إلا من قوي الارادة في ضعيفها وهذا النوع من شر النفاثات في العقد يروج في سوق العوام الجاهلين ويكسد في سوق العقلاء والمتقين بهداية الدين ، ولقد كان يشكو إليّ بعض هؤلاء المعقودين في بلدنا (القلمون) فأكتب لهم شيئا يحملونه فتنحل عقدتهم وسبب ذلك تأثير اعتقادهم وان كان بعضهم من نصارى لبنان .

والنوع الثاني أكثر منه رواجا ، وأعسر علاجا ، وهو الذي اعتمده وبينه شيخنا في تفسير السورة بقوله « والمراد بهم هنا النمامون المقطعون لروابط الالفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم ، وإنما جاءت العبارة كما في الآية لان الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا فيما يوهمون به العامة ، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها

ليكون ذلك حلا للعقدة التي بين الزوجين ، والنميمة تشبه أن تكون ضربا من السحر لانها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاذبة ، والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق إذا وقب . ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام فانه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك وأنت لا تعلم ماذا يقول ولا ما يمكن أن يقول ، وإذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه ، فلابد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه وهي قوة الله » اه

(ومن شر حاسد) الحاسد من يكره نعمة الله على غيره ولا سيما أقرانه وعشرائه ويتمنى زوالها عنهم ، والحسد خلق خبيث لا يتمكن الا من الانفس الخبيثة ، يكون في الافراد والقبائل والشعوب ، وأول الحاسدين من الجن إبليس : حسد آدم عليه السلام فعصى الله بالامتناع من السجود له ، فصار عدوا له ولذريته ، ومن البشر قابيل بن آدم حسد أخاه هابيل أن تقبل الله قربانه دونه ، فطوعت له نفسه قتله فقتله ، والحسد [illegible] على صاحبه [illegible] على أقدار ربه ، ويعاقب عليه في الدنيا بالآلام [illegible] قاتل الله الحسد ما أعدله ، بدأ بصاحبه فقتله . ولله در التهامي حيث قال في مرثيته المشهورة :

اني لأرحم حاسدي لفرط ما ضمت صدورهم من الاوغار
نظروا صنع الله بي فعيونهم في جنة وقلوبهم في نار

وانما يؤذي صاحب هذا الخلق محسوده اذا أطاع داعيته وسعى لارضائها بالعمل الاختياري وهو معنى قوله تعالى (اذا حسد) أي اذا عمل بمقتضى حسده والمؤمن المذعن يجاهدها فيكف نفسه عن كل عمل تزينه له وتغريه به . وورد في الحديث أن المخرج للمسلم من الحسد ألا يبغي على المحسود بعمل اختياري ، وشره وأضره حسد الرؤساء والزعماء من رجال الدين والدنيا فان بغيهم وكيد بعضهم لبعض يتعدى ضرره الى غيرهم ويفسد على الامة مصالحها العامة . ومن كان لا يرضيه ولا يكف شره الا زوال نعمتك فما حيلتك فيه ، وما أشد حاجتك الى الاستعاذة بالله منه ، والاستعانة بقدرته وكفايته على كف بغيه عنك !!

علاوة لتفسير السورة

في حديث سحر منافق من أشرار اليهود للنبي ﷺ

روى الشيخان من حديث عائشة (رض) قالت : سحر النبي حتى إنه ليخيل اليه أنه فعل الشيء وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه ثم قال ، اشعرت ياعائشة أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ قلت وما ذاك يارسول الله ؟ فقال : جاءني رجلان فجلس أحدهما على رأسي والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما لصاحبه ماوجع الرجل ؟ قال : مطبوب ، قال : ومن طبه ؟ قال لبيد بن الاعصم اليهودي من بني زريق ، قال فيم ذا ؟ قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر (١) قال وأين هو ؟ قال في بئر ذي أروان ومن الرواة من قال: بئر ذروان قال : وذروان بئر في بني زريق ، فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر اليها وعليها نخل ثم رجع الى عائشة فقال : والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رءوس الشياطين (٢) قلت يا رسول الله أفأخرجته ؟ قال : لا أما أنا فقد عافاني الله وشفاني وخشيت أن أثور على الناس منه شرا ، وأمر بها فدفنت وفي رواية للشيخين : كان ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن بنحوه . وفيه : سحره رجل من بني زريق حليف ليهود كان منافقاً (٣) . وعن (زيد بن أرقم) سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما فأتاه جبريل

(١) المطبوب الذي يعالج مرضه الطبيب والمسحور، والمشط بالضم هو الذي يمشط به الشعر، والمشاطة ما يسقط من الشعر عند مشطه (فعله من بابي نصر وضرب) ومشطه تمشيطا كسرحه ، وجف طلعة ذكر معناه غطاء طلعة من طلع نخلة ذكر . فالجف بضم الجيم وتشديد الفاء الغطاء الذي يخرج منه طلع النخل وهو ما يطلع منه فيكون منه ثمره . ومن المعروف أن منه ذكرا وأنثى

(٢) اي في قبحها الذي تضرب العرب به المثل وتسمى بعض الحيات شيطانا وهو ثعبان قبيح الوجه (٣) بنو زريق بطن من الخزرج فهو على هذه الرواية يهودي بالحلف لا بالنسب

فقال ان رجلا من اليهود سحرك عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا وأرسل ﷺ فاستخرجها فحلها فقام كأنما أنشط من عقال فما ذكر ذلك لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط ، رواه النسائي . والايام جمع فله ولكن بالغ بعض الرواة في غير الصحيحين فجعلوها اشهرا

فهذا الحديث صريح في أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء ولكن فهم اكثر العلماء أنه ﷺ سحر سحرا أثر في عقله كما أثر في جسده فانكره بعضهم وبالغوا في إنكاره وعدوه مطعنا في النبوة ومنافيا للعصمة لقول عائشة : حتى انه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن . فلهذا قطعت هذه الرواية على علماء المعقول وعدوها مخالفة للقطعي في النقل وهو ما حكاه الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كعادة أمثالهم في رسلهم بقولهم (٢٥ : ٨ إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) وتفنيده تعالى لهم بقوله (٢٥ : ٩ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) ومخالفة للقطعي في العقل من عصمة النبي ﷺ من كل ما ينافي النبوة والثقة بها ، إذ يدخل في ذلك التخييل ما هو من التشريع ، ومخالفة علم النفس الذي يعلم منه أن الأنفس السافلة الخبيثة لا تؤثر في الأنفس العالية الطاهرة . فأنكر صحة الرواية بعض العلماء ، وأقدم من عرفنا ذلك عنهم من المفسرين الفقهاء أبو بكر الجصاص في كتابه أحكام القرآن ، وآخرهم شيخنا الأستاذ الامام في تفسير « جزء عم »

وقد أطال شيخنا في هذا وبالغ فيه . وبنى انكاره له على القاعدة المتفق عليها عند علماء العقائد وأصول الفقه في معارضة الظني القطعي إذ الحديث آحادي وهو يفيد الظن فيرد بالقطعي عقلا ونقلا وهو ما ذكرناه آنفا ، وقد اتفقوا على أن أحاديث الآحاد لا يحتج بها في أصول العقائد ، وقال إن كونه يفيد الظن خاص بمن صح عنده وإن له أن يتأوله أو يفوض الامر فيه على قاعدتهم الاخرى في النصوص المعارضة للعقل ، ولعمري إن ما نعرفه عن شيخنا محمد عبده قدس الله روحه من اجلاله وإكباره لشأن محمد رسول الله وخاتم النبيين في نفسه الزكية ، وروحه القدسية ، وعلو مداركه العقلية ، مما لم نعرفه مثله عن أحد من العلماء العقليين كفلاسفة المسلمين ومتكلميهم ، ولا من العلماء الروحيين كالصوفية ، ولا من علماء النقل كجامعي

الروايات الكثيرة في معجزاته (ﷺ) وحسبك منها تلك الآثارة البليغة في رسالة التوحيد ، بل كان يقول إن روحه ﷺ كانت منطوية على جملة هداية الدين ، ومدارك التشريع التي فصلت في كتاب الله تعالى وسنته تفصيلا تاما كما نقلناه عنه في تاريخه

وأجاب عن الرواية المحدثون المصححون لها علما والمقلدون لهم بأن غاية ما تدل عليه أن ذلك السحر إنما أثر في بدنه دون روحه وعقله ، فكان تأثيره من الاعراض الجسدية كالأمراض التي لم يعصم الانبياء عليهم السلام منها

وقد محصت هذه المسألة مرارا آخرها في الرد على مجلة الأزهر (نور الاسلام) في زعمها المفترى أني كذبت حديث البخاري في سحر النبي ﷺ فبينت أن الحديث الصحيح في المسألة عن عائشة (رض) أوهم عبارة بعض رواياته ما هو أعم من المعنى الخاص الذي أرادته [illegible] وهو مباشرة الزوجية بينه ﷺ وبينها ، فقولها: كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ، [illegible] كناية عن هذا الشيء . الخاص لا عام في كل شيء ، فلا [illegible] ولا [illegible] نسيان الزوجية من الأمور العقلية أو [illegible] الذين يرمون الانبياء بسحر الجنون لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين ، فالمسألة محصورة فيما يسمونه حتى الآن الربط أو العقد أي عقد الرجل المانع من مباشرة زوجه فقط

وبينت أيضا أن الرواية في أصح أسانيدها عند الشيخين عن هشام عن أبيه عن عائشة فيها علة من علل الحديث الخفية التي يشترط في صحة الحديث السلامة منها وهي أن بعض منكري الحديث أعلوه بهشام هذا وألف بعضهم كتابا خاصا فيه محتجا بقول بعض علماء الجرح والتعديل إنه كان في العراق يرسل عن أبيه عروة ابن الزبير ما سمعه من غيره ، وعروة هو راوية عائشة الثقة وهي خالته . وقال ابن خراش كان مالك لا يرضاه يعني هشاما وقد نقم منه حديثه لاهل العراق ، وقال ابن القطان تغير قبل موته . ولا شك أن تعديل الجماعة له ومنهم الشيخان خاص بما رواه قبل تغيره فهذا عذر من طعن في روايته لهذا الحديث الذي انكروا متنه بما

حلت ، والامر فيه أهون مما قالوا (١) فالتحقيق أنه خاص بمسألة الزوجية كما جاء التصريح به في الرواية الثانية كما تقدم ولا يعتد بغير هذا

أما ما رواه البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس في مرضه ﷺ وأنه كان شديدا وأنه كان سحراً في بئر تحت صخرة في كربة وأنهم أخرجوها فأحرقوها فاذا فيها وتر فيه احدى عشرة عقدة وأنزلت عليه هاتان السورتان (يعني المعوذتان) فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة . اه ملخصا ، فهذا حديث باطل مخالف لحديث الصحيحين في المسألة ولروايات نزول السورتين بمكة وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس والكلبي هذا متهم بالكذب وطريقه أوهى الطرق عن ابن عباس واسمه محمد بن السائب

وأما ما رواه أبو نعيم في الدلائل عن أنس قال صنعت اليهود للنبي ﷺ شيئاً فأصابه من ذلك وجع شديد [illegible] فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما فخرج إلى أصحابه صحيحاً ، فهو من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس وهما ضعيفان . وليس في متنه ذكر السحر ولا أن المعوذتين نزلتا في ذلك الوقت ولا في شيء من روايات الصحيحين فالاستدلال به على أنهما مدنيتان ضعيف ، فالحق أنهما مكيتان كما تقدم

(١) راجع تفصيل المسألة في كتاب المنار والازهر ص ٩٥ — ١٠٥

١١٤ سورة الناس ، مكية وآياتها ست

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَٰهِ النَّاسِ ۞ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

سورة الفلق نزلت في الاستعاذة بالله من شرور جميع الخلق الظاهرة التي تطرأ في جميع الازمنة من ليل ونهار ، كالضرر في الابدان والاعراض والاموال ، وهذه السورة في الاستعاذة من الشر الخفي النفسي وهو الفساد في العقائد والعقول والآراء ، كالشكوك والخرافات والاوهام ، ولذلك جعل الاستعاذة الاولى برب الفلق ، المحدث لنور الوجود في ظلمة العدم ، وجعل الاستعاذة في هذه السورة بما تقرأ في قوله عز وجل :

(قل أعوذ برب الناس) أي اعتصم وألتجئ برب الناس الذي خلقهم ويربيهم بنعمه ، ويؤدبهم بنقمه ، ويصلح ذات بينهم بشريعه ، ويؤلف بين قلوبهم بهداية دينه ، (ملك الناس) المدبر لأمور حياتهم بقدرته ، المتصرف في منافعهم ومضارهم بمشيئته ، الذي يحكم بينهم فيما يختلفون فيه بحكمه ، فأسباب رزقهم ومحياهم ومماتهم في قبضته ، (إله الناس) أي معبودهم الحق الذي إياه يدعون بالحق خفية وتضرعا ، وخوفا وطمعا ، وله يسجدون طوعا وكرها ، ذي السلطان الغيبي الأعلى على الاسباب والمسببات الذي تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وإليه تتوجه قلوبهم إذا عجزت قواهم عن مطالبها ، وتقطعت بهم الاسباب دون رغائبها ، من رفع ضر أو جلب نفع

وحكمة إعادة كلمة الناس في إضافة كل من هذه الصفات الثلاث هي أظهر وأجلى من كل ما تقرر في علم المعاني من اقتضاء البلاغة لوضع الاسم الظاهر موضع الضمير ، ومن اقتضاء سياق الكلام للاعادة والتكرير ، لما يجدده في العقل من

بقظة التفكير ، وفي القلب من قوة التأثير ، كقوله تعالى في سورة الرحمن (والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) فتكريره لفظ الميزان المفرد تنبيه لعظم شأن الحسي والمعنوي منه في نظام الكون ، فالاول الآلات التي تعرف بها نسب الاشياء ومقاديرها من الثقل والمساحة وغيرهما ، والثاني العدل الذي توزن به الحقوق ويميز بين الراجح منها والمرجوح . ومثله تكرير معنيا لآية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) بعد ذكر كل نوع من نعم الله تعالى الحسية والمعنوية في الدنيا والآخرة لاجل تدبرها ومراعاتها في العمل

القرآن هداية للناس غايتها ان يكونوا بالاهتداء كلة احرارا أعزة سعداء في الدنيا والآخرة ، لا يذلون ولا يدينون لمخلوق مثلهم ، ولكنهم اهانوا أنفسهم شر الاهانة ، وأذلوها أقبح الذل ، باتخاذ أرباب لهم من خلقه تحلوهم صفات ربهم الحق في الخلق والتدبير ، والرزق والتقدير والهداية والتشريع — وباتخاذ ملوك لهم من أنفسهم يطيعونهم في معصية الله ، ويرضون بان يكونوا عبيدا لهم من دون الله ، ويذلون لهم بما لا يذلون لربهم الله ، ويتبرون من نقائصهم ومساويهم ما يعلمون به أنهم دونهم علما وعملا ، ولذلك كان هؤلاء يحرصون أن يستطيلوا على رعاياهم إلهية ، وخضوعها لهم عبودية ، فما استذلوها سموا انفسهم آلهة وأربابا ، — وباتخاذ آلهة من دونه يجعلونهم شركاء له في السلطة الغيبية المسخرة لاسباب المنافع والمضار ، والتصرف الذاتي في ملك الله ، فيدعونهم مع الله أو من دون الله ، وينذرون لهم كما ينذرون لله ، ويذبحون لهم القرابين كما يذبحون ويقربون لله ، ويحلفون بهم كما يحلفون بالله بل ربما أقدموا على الحنث إذا حلفوا به ولا يحنثون اذا حلفوا بهم ، فيجعلونهم أعز وأكرم عليهم من الله عز وجل — فجميع مصائب الناس ومخازيهم المفسدة لدينهم والمذلة لهم في دنياهم ، لا مصدر لها الا أوهام الناس وخواطر الناس وهواجس الناس ، فقد كرر لهم كلمة الناس ليذكرهم بأن جل شرورهم ومصائبهم من أنفسهم من حيث إنهم هم الناس ، فان البهائم لا تجني على أنفسها مثل هذه الشرور التي حذرهم منها بما يقرر في أنفسهم كمال التوحيد في ربوبيته وملكه وألوهيته ، وأن يعوذوا به مما يصرف قلوبهم عنها ، وذلك قوله عز وجل

(من شر الوسواس) وهو كما في المصباح : بالفتح اسم من وسوست إليه نفسه اذا حدثته ، وبالكسر مصدره وقال لما يخطر في القلب من شر ولما لا خير فيه وسواس (أي بالفتح) اه وقال الراغب الوسوسة الخطرة الرديئة ، وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي اه فالوسواس يكون من نفس الانسان ومنه (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ويكون من الشيطان ومنه قوله تعالى في آدم (فوسوس اليه الشيطان) وفي آدم وحواء (فوسوس لهما الشيطان) وقد استعمل بمعناه المصدري وهو خواطر النفس الرديئة وحديثها الضار ، واستعمل صفة للسبب الذي يحدثها في النفس بمعنى الموسوس كالثرثار أوصف به للمبالغة و(الخناس) صفة له بهذا المعنى وهو صيغة مبالغة من خنس (كضرب) أي انقبض ورجع ، ويستعمل متعديا فيقال خنسته فانخنس أي قبضته وأخرته فانقبض أي تأخر وتوارى ومنه (الجواري الكنس) وهي الكواكب التي تخنس وتختفي في ضوء الشمس بالنهار . والمعنى ان هذا الوسواس يعرض للانسان في حال الغفلة ويخنس ويتوارى في حال التذكر والبصيرة ، كما قال الله تعالى (٧ : ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فهو يوسوس له تارة ويخنس تارة دواليك فلا يدوم أبدا ، ولا يزول وينقطع سرمدا ، فيجب عليه ان يفطن له لمنع شره ، فانه إذا غفل عنه ملكه واستعبده (الذي يوسوس في صدور الناس) دائما — كما تفيده صيغة الفعل المضارع — بما يلقي في خواطرهم من الشكوك والشبهات في الدين ، والاوهام في النافع والضار ، واتباع الشهوات المحرمة ، وإغراء العداوات الضارة ، والمكايد المفسدة ، التي تنشرح صدورهم لبعضها وتنقبض لبعض ، بحسب ما يناسبها من أهواء النفس . والمراد من الصدور القلوب التي تحويها إذ هي التي تشعر بالقبض والبسط ، والانفعال المؤلم والملائم للنفس ، فيسند الادراك اليها ، كما يسند إدراك المبصرات الى العينين ، والمسموعات الى الاذنين ، وهذا لا يمنع أن تكون آلة جميع أنواع الادراك العصب ، وأن يكون مركزه الكلي أو العام الدماغ

(من الجنة والناس) هذا بيان للوسواس أو الذي يوسوس من شياطين الجن والانس ، فان بعضه من الجنة أي المخلوقات الخفية التي نشعر بأثرها إذا فطنا له ولا نراها لأنها من جنس أنفسنا لا من جنس ابداننا ، وبعضه من الناس امثالنا الذين نراهم بأعيننا ، ونسمع كلامهم بآذاننا ، وقد نغفل عما يلقونه في قلوبنا من الوسواس المفسد للعقائد ، والمغوي بالمفاسد ، والمغري بالفتن والمنكرات ، والمزين لاتباع الهوى في الشهوات ، لأنهم يدسون سمومها في دسم النصيحة من حيث يدرون ويقصدون ، أومن حيث لا يشعرون . فيساعدهم على قبولها ما يتراءي للموسوس له أنهم له ناصحون بمساواته بأنفسهم ، وغنيهم له ما يمنونه لها ، أو ما ظفروا به منها .

قال تعالى (٧ : ١١٢ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون (١١٣) ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) أي اقتضت سنتنا بأن يكون لكل نبي أعداء يصدون قومه عما بعث به من البينات والهدى ، هم شياطين الانس والجن أي شرارهم ، يوحي بعضهم إلى بعض بالوسواس ما يزينونه بزخرف القول الخادع يغرونهم ويخدعونهم بخلابته فيقبلونه ويفتتنون به (١)

وان شياطين الانس لأقوى شرا واشد ضرا من شياطين الجن ، وجل فسادهم منهم ، وشرهم رؤساؤهم من الملوك المستبدين ، والعلماء المنافقين ، والعباد الجاهلين الدجالين ، والاغنياء المتكبرين ، والشعراء الغاوين ، ويوم القيامة يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض ويتحاجون في النار كما اخبرنا الله تعالى به في سور البقرة وابراهيم والعنكبوت وسبأ والصافات والمؤمن

وان شيطان الجن يخنس وينزوي ويترك وسواسه إذا ذكر الانسان الله تعالى بقلبه ولسانه او بقلبه فقط ، وكذا إذا تذكر ان هذه الوسوسة منه . واما

(١) راجع تفسير الآيات في الجزء السابع من تفسير المنار

شيطان الانس فلا يخنس ولا يرجع عنك وإن ذكرت الله وذكرته به، بل يجادل في الله وفي كتاب الله وآياته

فالخناس يصح ان يكون صفة للوسواس الذي هو حديث النفس وخواطرها الرديئة فانه يخنس وينقبض اذا فطنت له وسلطت عليه ذكر الله وآياته ووعده ووعيده ، ويصح ان يكون وصفا لشيطان الجن الموسوس وعليه الجمهور، وليس له سلطان على الانسان بغيرها وكل ما يدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان اوملوك الجان على بعض الناس وقدرتهم على نفعهم وضرهم فهو كذب وحيل من شياطين الانس وخدعهم ، ومن أراد تفصيل وسوسة الشيطان للانسان ومعالجته بذكر الله فليطلبه من تفسير (٧ : ٢٠٠ ـ ٢٠٢) في (ص ٥٣٩) من الجزء التاسع من تفسير المنار

نصيحة لكل مؤمن

يجب عليك أيها المؤمن الذي يريد تزكية نفسه وحفظها من الشر وجعلها خيرة وأهلا لسعادة الدارين، أن تعنى بوقايتها من الشر قبل وقوعه ومعالجتها بعد وقوعه ، كما تعنى بوقاية بدنك من الأمراض قبل وقوعها ومعالجتها منها بعد وقوعها ، . وان تعلم ان لكل من أمراض النفس والبدن أسبابا ظاهرة وأسبابا خفية ، فالخفية من أمراض البدن أحياء دقيقة تملأ الارض والفضاء يسميها الاطباء « الميكروبات» وما عرفوها الا في القرن الماضي، فهم يرونها الآن بالمناظير المكبرة ، وأما الخفية من أمراض النفس فهي لاترى ولذلك سماها الوحي الجنة والجن (بكسر الجيم) ومنشؤها الوسواس الذي تلقيه الشياطين في خواطر الناس وهم شرار الجنة ، وقد علمنا الوحي أن لكل إنسان منا شيطانا يوسوس له بالشر الذي يغويه ، فالذي يجب على كل منا اتقاء وسواسه بمراقبة خواطره ووزنها بميزان الشرع ليميز بين الحق والخير منها الذي يكون بهداية الدين وسلامة الفطرة الالهية ، والباطل والشر الذي يكون بوسوسة شياطين الجن والانس ، فاذا نسي نفسه والتمييز بين خواطره غلب عليها الشر وكان من الغاوين ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم

مأساة أميرة شرقية

نقد وتحليل بقلم الأستاذ العلامة المصلح الشيخ محمد تقي الدين الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

نشرت مجلة (The Illustrated Weekly of India Bombay) المصور الأسبوعي للهند بمباي في ٢٧ أغسطس ٩٣٣) ضمن سلسلة مقالات في تاريخ الشرق للكاتب الانكليزي (كراهام لويس) مقالا تحت عنوان « مأساة أميرة عربية » ارتكب فيه أخطاء عظيمة . وها أنا ذا مترجم مقاله فراد عليه بما يجلي الشبهة ويوضح الحقيقة بعد مقدمة وجيزة في بيا تسبب كثرة الأخطاء . والأغلاط الجهلية بالمعلومات العمدية ، التي تكثر جدا في كل ما يكتبه الافرنج عن الاسلام والمسلمين ، والشرق والشرقيين

مقدمة في أخطاء المستشرقين وخطاياهم

أيجوز أن تتلقى بالقبول كل ما يكتبون عن الشرق؟

لهؤلاء العلماء الاوربيين الذين يسمون بالمستشرقين أخطاء ، ولهم خطيئات أيضا . أما أخطاؤهم فمنشؤها القصور ؛ لأن أكثرهم إذا لم يكن كلهم يتعلمون الآداب والعلوم الشرقية بأنفسهم بمطالعة الكتب ، ويستعينون بتراجم أمثالهم ممن سبقهم ، فيلمون باللغات والعلوم إلماما ضعيفاً لا يمكن صاحبه أن يجلس على منصة الحكم ويقضي بالقسطاس المستقيم ، والكتب وحدها لا تهدي ضالا ولا تعلم جاهلا ، وما أحسن ما قاله أبو حيان النحوي وإن كان قد أخطأ في إرادته بالتعريض بالامام ابن مالك

يظن الغُمر أن الكتب تهدى أخا فهم لادراك العلوم
ومن يُدري الجهول بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى تكون أضل من تُوما الحكيم[1]

وقد قيل : لا تأخذ العلم عن صحفي ، ولا القرآن عن مُصحفي[2] فأكثر المستشرقين صحفيون في العلوم الشرقية . ولنضرب لذلك مثلا (جورج سايل) أول من ترجم القرآن إلى الانكليزية ، وهو أحد الثلاثة الذين شهد لهم العلامة أحمد بن فارس الشدياق رحمه الله بالمعرفة الحقيقية للغة العربية وحكم على سائر المدعين لمعرفتها على عهده في البلاد البريطانية أنهم لا يعلمون . ولذلك قرأت شيئاً من ترجمته فوجدت في الجزء الأول من القرآن أربعين غلطة ، كتبت في ذلك مقالات نشرتها في مجلة الضياء المصرية في السنة الماضية ([illegible])

ومثال آخر رسائل أبي العلاء المعري ترجمها الى الانكليزية عالم انكليزي نسيت اسمه وطبعت في أوربة ، طالعتها فوجدتها مشحونة بالأغلاط .

ومثال ثالث ترجمة محمد مار ماديوك العالم الأديب الشهير صاحب مجلة « اسلاميك كلتشر » أي الثقافة الاسلامية وله تصانيف جياد

---

(١) المنار : اشتهر اسم توما الحكيم حتى مضرب المثل في الجهل المركب من جهلين الجهل بالامر والجهل بهذا الجهل ، اذ قال الشاعر في هجائه : —

قال حمار الحكيم توما لو أنصف الناس كنت أركب
لأنني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب

(٢) الصحفي من يأخذ العلوم عن الصحف بدون تلق عن العلماء ، وهو بالتحريك نسبة الى الصحيفة لأن العرب تنسب الى المفرد لا الى الجمع ، والمصحفي من يتلق القرآن من المصحف لا عن القراء الحفاظ وكل منهما يكون كثير الغلط والخطأ

قرأت شيئاً من ترجمته للقرآن فوجدت فيها أغلاطا واضحة جدا ، وكتبت اليه بشيء منها فاعترف وأجابني شاكرا وطالبا المزيد ، الا في غلطة منها فانه أبى أن يعترف وعمي عليه فهم الصواب فيها وهي في قوله تعالى (ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) ومثيلتها قوله بعد ذلك (ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) ترجمها بما معناه أليسوا سفهاء الخ ووضع علامة الاستفهام في آخر الجملة وكذلك صنع بالتي بعدها ، فلم يميز بين (ألا) المركبة التي هي همزة الاستفهام ولا النافية كقوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) وقول الشاعر :

ألا اصطبار لسلمى أم لها جلد إذا ألاقي الذي لاقاه أمثالي

ألا اصطبار لمن ولت شبيبته وآذنت بمشيب بعده هرم

وبين «ألا» الاستفتاحية البسيطة كما في الآية ، وفي قول امرئ القيس : « ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح » فكتبت اليه جوابا وضحت له المسألة فرجع الى الاعتراف وقال : اني متعجب جدا من عدم انتباه الأستاذ العذراوي لهذه الأغلاط ، وأنا قد اعتمدت عليه في تصحيح الكتاب ، وأقمت سنتين في مصر بقصد تنقيحه

ولو كان الزمان مواتيا والفرصة سانحة لصححت ترجمته من أولها الى آخرها ، لأنها أول ترجمة قام بها انكليزي مسلم وآخرها أيضا ، وان لم تسلم من الأغلاط المعنوية أيضا ، ولكنها على كل حال أفضل من تراجم النصارى

وأما الخطيئات فيرتكبها ثلاثة أضرب من المستشرقين :

(الضرب الأول) هم القسيسون المتعصبون كجورج سايل المتقدم ذكره ومارجليوث وزويمر ومن على شاكلتهم ، والحامل لهم على ارتكابها شدة بغضهم للاسلام وللشرق كله من أجل الاسلام .

(الضرب الثاني) السياسيون المستعمرون وغرضهم معروف ،

(الثالث) الأدباء الذين لا يترفعون عن الكذب وزخرف القول ليكتسبوا بذلك المال الوافر والشهرة الواسعة والعجاب القراء الاوربيين الجاهلين ، الذين يصدقون كل ما يقرءون عن الشرق والشرقيين

ولعل (مستر لويس كراهام) محرر المقالات الشرقية الأدبية التاريخية في مجلة « المصور الأسبوعي » التي تنشر باللغة الانكليزية في مدينة (بمباي ــ الهند) من هذا الضرب الأخير ، فانه كتب مقالا في المجلة المذكورة بتاريخ . . . . تحت عنوان (مأساة أميرة شرقية) وملأه بالأكاذيب والاخطاء والخطابات وتقف على ذلك فترى كيف يعبث كتاب أوربة بالحقائق ويتحدثون عن التاريخ العربي بما يشبه قصص ألف ليلة [illegible] بل فيما ينشر في الشرق الانكليزي وأكثر المستعمرات وشبه المستعمرات أيضا . ونحن عن ذلك غافلون أو متغافلون

قبل الشروع في نخل مقال كراهام ووضعه على محك النقد يجب عليّ أن أعترف بأن هنالك قسما رابعا من المستشرقين هم بريئون من تعمد الخطيئات ومبرءون عنها ، وكانوا قبل هذا الزمان قليلا جدا ، فهم توماس كارليل وجيبون وكوتى ، وأما في هذا العصر فهم بحمد الله كثير لا يحصون ، ولكن الخاطئين أكثر منهم بكثير، بل لامناسبة بينهم ، فيجب علينا أن نفتح عيوننا ، وننظر ماذا يقال عن أدبنا وتاريخنا في الصحف والمخيلات (السينمات) ودور التمثيل وسائر الأندية ، ونغير في وجوه المبطلين اهـ

قال لويس كراهام :

الجمال فى النساء يجلب لمن تحلت به كفلين متساويين من سعادة وشقاء . وصحف التاريخ طافحة بالحوادث التى أتاح الحسن فيها للمرأة الثراء والغنى ، والمكانة ، والنعيم ، والعذاب .

يظهر أن كل صورة ظهرت ملأى بالنور والغبطة تكون خاتمتها أبداً ظلمة وانحطاطا من شاهق الى هوة سحيقة .

ليلى بنت الجودى الغسانى رئيس القضاة وُهب لها جمال زاهر يحرق قلوب الرجال ويبعث أهواءهم . لقد اشتهرت شهرة واسعة بالجمال الفائن منذ صباها . ولم تلبث أن تزوجت بمالك بن نويرة ، وكان مالك صديقا حميما للبطل الاسلامى العظيم خالد بن الوليد ، ولأسباب خارجة عن هذه القصة أن مالك [illegible] بين وساءت العلاقات بينهما جدا ، حتى انتهى ذلك الى أن صار كل منهما [illegible] الفرقة معادية للأخرى ، وكلتا الفرقتين تبذل أقصى جهدها للفتك بالاخرى بحجة شرعية فى معتقدها الخاص . ولم تدم هذه الواقعة طويلا حتى وقع البائس مالك بن نويرة هو وحليلته ليلى اسيرين فى يد خالد

والآن قد ألمتا بنتى ، من وصف لى تقولاتها وهبت قلبها لزوجها ، وعزمت على أن تبذل كل مرتخص وغال فى الدفاع عنه لتربح حياته ، وكانت النساء إذ ذاك محتجبات ، وكان كشف وجوههن يعد خزيا وعاراً ، ومع ذلك تزينت ليلى بحليها ، وأرادت أن تجعل حسنها شفيعاً فى زوجها ، فعزمت على أن تقصد خالداً تطلب منه الرحمة ، وتظهر أمامه سافرة ، وتضم إلى حسنها شفيعاً آخر وهو أعذب ما تقدر عليه من الكلام لعله يهب لها حياة مالك

كانت تلك الليلة ليلة لهو وطرب وسرور وانبساط وشرب خمور ، في معسكر خالد . والجنود مغتبطون قاعدون حول النار يصطلون . ويعددون أعمال ذلك اليوم «الوقعة» . وبينما هم كذلك اذا بشبح متزمل بعباءة كثيفة يجتازهم حتى يقف أمام فسطاط خالد . فما هي إلا همسة يهمسها الشبح للحارس حتى يلج الفسطاط ويرى خالداً مضطجعاً على سريره ليستريح . وكانت ستائر الخيمة من الجوخ العالي الذي أخذ من الغنائم ـ وذلك السرير بعينه جاء من قافلة فارسية . وكان الفسطاط مضاء بنور ضئيل ، ورائحة العود تعبق فيه وتزيده روعة وجلالا . وما وقع بصر خالد على الشبح حتى نزع العباءة الضخمة التي كانت تحيط به ، وظهرت ليلى أمام خالد ، ولم تلبث الا لحظة حتى جثت على ركبتيها ، وتفجر من بين شفتيها [illegible] من الكلام ، وكأن قلبها في مخالب طائر ، [illegible] عيناها ففاضت بالدموع ، فرأت ابتسامة على شفتي خالد ، واها ! لقد نجحت ! لقد أذاب جمالها قلب القائد الحربي الحديدي ، سرت ليلى بذلك

بغتة يكسر صوت خالد ذلك السكون وكان صوته غليظا خشنا من الغضب ، ما كادت ليلى تسمع رنين لفظه حتى جحظت عيناها من الرعب ، ولما رأت الرجل الذي دعاه خالد فزعت منه وأرادت ان تجفل ولكن دمها صار جمداً حين سمعت نص الحكم الذي فاه به القائد — اضرب عنق مالك في الحين ، وادع لى اماما يعقد لي على ليلى الآن

أما الرعب والفزع الذي وقع لهذه المرأة السالبة للعقول فلا يمكن وصفه . فتصور القارىء له خير من أن أصفه له ، فكرت ليلى لحظة وهي في غاية الاضطراب فتحققت أن جمالها هو الذي خذلها وأسلمها . لقد أتيح

عملها ضد المقصود ، فبدلا من أن توقظ رحمة خالد أيقظت هواه. لم يضع شيء من الوقت في الحال أبلغ البائس مالك الحكم ، وما شعرت ليلى وهي لا تزال جاثية ذاهلة أمام سرير خالد الا وصوت مالك يرشق قلبها المثقل بالآلام ضغثاً على إبالة .. هذا هو سر القضية ، ما قتلني الا انت ...

وهكذا صارت ليلى زوجا لخالد لاعنة جمالها الذي كان نكبة عليها

حقا لقد كان جمال هذه المرأة مدهشا ، وناهيك أنه في وقعة عقرباء جالت جنود خالد جولة (انهزمت انهزامة قليلة) فهجم العدو على فسطاط خالد ، وكان سيدهم (مجاعة) قد أسرته خيل خالد من قبل ، فوجدوه مطروحا هناك موثقا ، فأراد هؤلاء البدو المتوحشون أن يقتلوا ليلى . لكن جمالها الفتان كان قد سرى في قلب (مجاعة) وعمل عمله ، فدفعهم عنها وأجارها [illegible] فأبى وفضل أن يبقى أسيراً عند ليلى ليتمتع بصره بالنظر اليها حينا

واشتهر جمال ليلى وطار صيتها في الآفاق حتى صار الناس يتغنون به في المدينة ، فهاج هوى عبد الرحمن (بن أبي بكر) فأخذ يشبب بها ويتغنى بحبه لها ، وما زال هائما بها حتى أسعده الحظ بتزوجها فرفعها الى اعلى مكانة من الاجلال حتى هجر لأجلها نساءه وخليلاته (سراريه)

لكن ذلك الاجلال والعشق كان فارغا لأنه انما كان يحب الجمال الجسمي ، ضاربا عرض الحائط بجمالها النفسي ، كان زواجه غما عليها وحزنا ، لم تزل الاميرة البائسة تذكر مالكا وأيامه السعيدة . ولما وجدت نفسها في مستوى الحيوان الأعجم إنتهى الامتعة وملهاة انقبضت نفسها ، واستولى عليها الهم ، وغلب عليها الصمت ، فنحل جسمها وذبل جمالها فذبل معه حب عبد الرحمن لها

وفي خاتمة الأمر رجعت الى بيت أبيها لتقضي بقية أيامها في تفكير هادىء . وهكذا كانت عاقبة هذه المرأة العجيبة — كانت حياتها كما ترى حياة شاقة أدت لأجلها ثمنا عاليا حتى على حسنها وجمالها

(في الفسطاط)

صور الكاتب داخل فسطاط خالد صورة تضاهي غرفة أحد ملوك الهند في العصر الحاضر . فهذه النارجيلة الطويلة قائمة منتصبة ، وهذه باطية بلورية مملوءة خمرا تحفها الكاسات النفيسة ، وهذه المباخر يتصعد في جو الحجرة دخانها ويعبق طيبها ، وهذه المصابيح الجميلة معلقة يتوقد نورها ، وهذا خالد بن الوليد الذي اخترعته مخيلة كراهام مرتديا ثيابا فاخرة على الزي المصري يخاله أحد العمد المترفين جالسا على كرسي مزخرف بديع [illegible] لوضع القدمين ، وهاهي ذي المائدة البهية منصوبة عليها من الفواكه ألوان وأفنان

وهذه ليلى ابنة الجودي عارية النصف الأعلى من جسمها تقريبا متزينة بأقراطها وفتخاتها وثلاثة أزواج من الأساور ، فزوج في عضدها وآخر أسفل قليلا من مرفقها وثالث في معصمها ، متجردة في سراويل بلا غلالة ولا درع ، وحجالها في أسفل ساقيها الى كعبيها ، غادة بيضاء ، وسيمة جيداء ، ملفوفة لفاء ، هضيمة الخصر عظيمة ما تحته ، طوالة زلحة برهرهة (ولولا التأدب مع المرحوم العلامة أحمد بن فارس صاحب الساق على الساق لأسهبت في سرد الأوصاف) ترى هذه المرأة الفتانة جاثية على ركبة واحدة ، محدقة النظر في وجه خالد العبوس ، جزوعا هلوعا ، مستعطفة مسترحمة بعينيها ومنظرها الذي يذيب الجماد ، بله ، جدول الكلام المنصب المنساب من شفتيها كما قال كراهام مخترع القصة نفسه

وأما خالد هذا الخيالي فيتصوره الرائي مقطب الوجه الا أن عينيه لا تستطيعان أن تخفيا ما سرى في جسمه ونفسه من الهيام بحسن هذه الدمية الجاثية بين يديه، وهي كما قال الكاتب (تراجيدي) أي مأساة ترق لها قلوب الأسود المحصر ، والسباع الضارية ، لو كانت حقيقية أو خيالية . أما وقد أساء مخترعها الى القراء بأن جعلها في الدعوى حقيقة تاريخية وفي الواقع خرافة خيالية فان ذلك يغض من روعتها ويقلل من تأثيرها ويشوش تصورها

فياليت شعري أكان كراهام لويس جادا أم هازلا ، جاهلا أم متجاهلا ، مستهزئا بنفسه ام بالقراء ، ام بالتاريخ ام بالأدب ، حين أخذ صورة امرأة خليعة من نساء الفرس الساكنين في [illegible] ووضعها بين يدي صورة فلاح غني من ريف مصر في [illegible] مترف وقال للناس هذه صورة خالد بن الوليد القائد العربي [illegible] بحمص او دمشق (فيكون الامر لولا النارجيلة والخزفريا) بل في معسكره بالبطاح من ارض بني تميم وهو في سرية متحفز لقتال اهل الردة ؟ لكن هذا الكاتب الظريف ابى له خياله الا ان يجعل فسطاطه مجلس كسرى او قيصر ، واضاف اليه نارجيلة لتلا تحرم من زينة مجالس اولي النعمة والترف من أهل الشرق الاقصى . وليس على فكره بمستنكر ان يجمع الازمنة في زمان واحد والامكنة المختلفة في مكان واحد ، والاشخاص المتعددين في شخص واحد ، كما سيأتي بيانه في تحقيق قصة ليلى ابنة الجودى ، ولقد اعجبني جدا ماقاله الاستاذ معين الدين احد رفقاء دار المصنفين في رده على هذا الكاتب في مجلة معارف الأوردية فانه بعد ان فند ما تكذبه الكاتب وادى اليه ما يستحقه من الاحتقار قال ما ترجمته : تصويره خالدا وفسطاطه كمن يصور المسيح على طيارة يحوم في جو باريس ويتفرج على قصورها . اه

(يتبع)

التربية الاسلامية والتعليم الاسلامي

كلتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، تلوكهما الالسنة والاقلام ويجولان في جميع الاذهان ، ويتحدث بهما الرجال والنساء والولدان ، وقد أجمع الناس في هذا الزمان على أنهما مصدر السعادة للبيوت « العائلات » والشعوب أفرادها وجملتها ، ولو سألت كل فرد من أفراد هؤلاء الناس عن هذا الاجماع لأجاب انه حق لاريب فيه ، وانه من القضايا الضرورية التي لا يتوقف الحكم فيها على برهان ولا دليل .

ثم انك لو سألت كل واحد من هؤلاء عن تفسير هاتين الكلمتين وتفسير كلمة السعادة وعن الرابط بينها وبينهما الذي كانتا علة أو سببا ، وكانت هي معلولة ومسببا أوسألته عما هو معروف الآن لكل مطلع على أحوال البيوت « العائلات » في بلدهم وأحوال الشعوب التي تشرحها جرائدها وتنشرها في العالم ومن تطبيق تلك القاعدة الاجتماعية عليها في جميع أدوارها وتفصيل ما تشكو منه وتصفه من أنواع الشقاء في مظاهرها الادبية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بل لو سألته عن أفظع وقائع المظالم والجنايات والخيانات فيهما ، هل وقع بفعل الناس من الاميين ومن على مقربة منهم ممن لم يتح لهم إلا التعلم الابتدائي أو الثانوي لأجابك كل واحد عن السؤال الاخير بأن كل ما ذكرت من أنواع الجرائم الكبرى لم يقترفه إلا النابغون في التعليم العالي وما يليه ، يجيبك هذا لانه هو القطعي المعلوم بالمشاهدة المنقول بالتواتر ، ولكنه يعجز عن الجواب عما قبله من فائدة التربية والتعليم ، ومن معنى السعادة ، ومن الوسط الرابط بينهما ، لان هذه كلها قضايا نظرية كان يقلد غيره فيها ويعد المسلمات من الضروريات

معنى كل من هاتين الكلمتين يختلف باختلاف متعلقه والغرض منه وكونه على منهاج يؤدي إلى الغرض أو يفرطس في الهدف التربية تنشئة قوى الانسان الجسدية والعقلية والروحية بما تربو به وتنمي وتترعرع حتى تبلغ كمالها الشخصي في محيط الملة والامة ، فمن أعمالها ما هو مفيد لكل أفراد الناس لأنه لا يختلف

باختلاف الاقوام في مقوماتها الملية ومشخصاتها الوطنية ، كتربية الابدان المبني على قواعد الصحة في الغذاء والنظافة والرياضة ، ومنها مايختلف اختلافا واسع المسافة بعيد الشقة ، فما يعده بعض زعماء الاقوام والامم مصلحة يعده غيرهم من أكبر المفاسد ، وتفصيل ذلك يطول وليس من موضوعنا الآن ،

والتعليم تلقين العلم الذي يساعد التربية على تكميل الانسان وهو كالتربية منه مالا بد منه لجميع الناس في كل زمان ومكان ، ومنه مايختلف الحاجة اليه باختلاف الاطوار والاحوال ، وحاجة الاقوام والاوطان ، والاصل فيه أن يعلم النشء ما يرشده إلى العمل الذي لا بد له منه في حياته الشخصية والمنزلية والوطنية الخ

التعليم افادة العلم والعلم بيان للعمل صفته واتقانه . وأما الباعث للعامل على العمل بعلمه فهو ثمرة تربية النفس على مايوجهها إلى طلب منافعها ومصالحها الحسية والمعنوية ، أو المادية والادبية — كما يقول كتاب عصرنا — أو إلى ما فيه الخير لها في المعاش وفي المعاد كما يقول علماء الدين ، فتنمية العمل رهينة بحسن التربية .

وهذه المباحث كلها طويلة الذيول ، متشعبة الحقول ، وإنما ذكرت تمهيدا للمسألة عن التربية الاسلامية والتعليم الاسلامي ما هما وأين يوجدان في هذا القطر ؟ أيوجدان في بيوت المسلمين كافة ، أو بيوت بعض الطبقات منهم ؟ أيوجدان في مدارس وزارة المعارف ، أو مدارس الاوقاف الملكية ، أو مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، أو المدارس الحرة ؟ أيوجدان في مدارس المعاهد الدينية الازهر وملحقاته ؟ الذي أعلمه أنا لا يوجد في بيوت المسلمين ولا في المدارس الرسمية ولا غير الرسمية ولا في المعاهد الدينية تربية اسلامية مدونة أو متبعة بالعمل في تنشئة أطفالهم في البيوت ثم تلاميذهم في المدارس والمعاهد على أخلاق الاسلام وآدابه وعباداته كالصدق والحرية والحياء والامانة وعزة النفس وبر الوالدين وصلة الرحم والتعاون والاقتصاد والتراحم واجتناب البذاء والفحش في القول الخ حتى يترعرع ويشب معتقدا أن المسلم باسلامه أعز الناس نفسا وأجدرهم بالكرامة واتباع الحق واحتقار الباطل وحب الخير للناس كافة ، وأنه يجب بذلك

أن يكون قدوة لهم في كل فضيلة وعادة وعمل، ولا يليق به أن يكون تابعاً ومقلداً لقوم آخرين فيما يعد تفضيلا لهم على قومه ، مع اعترافه لكل ذي حق بحقه ، وكل ذي فضل بفضله ، وبراءته من كل ما فشا في قومه من البدع والخرافات والعادات الضارة والسعي لازالتها عند ما يكون أهلا لذلك ، ولكن يوجد في بعض البيوت بقايا متبعة ذلك

وأما تربية المدارس فروحها تفرنج يقتل الاسلام قتلا بتفضيل كل ما هو افرنجي على ما يخالفه من عقائد الاسلام وشعائره وعباداته وأخلاقه وآدابه ومشخصاته ، وحسبك أن الصلاة التي هي عمود الاسلام وعنوانه ، ومغذية الايمان ، غير واجبة على أساتذة هذه المدارس ولا على تلاميذها فلا يطالب بها أحد ، كما أنها غير محرمة عليهم فلا يمنع من أرادها في غير وقت الدرس . وقد أجمع المسلمون سلفهم وخلفهم على أن من استحل ترك الصلاة يكون مرتداً عن الاسلام لا يشارك المسلمين في شيء من أحكامهم من إرث وزواج ولا يدفن في مقابرهم وإن كان [illegible] بل يجب على الحكومة استتابته فان لم يتب قتل كفراً . وأما من ترك الصلاة وهو مؤمن غير مستحل فأهون ما قاله الفقهاء أنه يحبس حتى يتوب . كذلك الصيام اختياري في مدارس الحكومة المصرية ، وهو من أركان الاسلام من استحل تركه كفر

هذه المدارس قد وضع الانكليز نظمها ، وعينوا لها وجهتها وغايتها كما شاؤا ، ومن مقاصدهم فيها ألا يكون لمن يتعلم فيها أدنى شعور بأن لقومه ملة اسلامية ، لها من المزايا في دينها وتشريعها وحضارتها وتاريخها ما تعلو به على جميع الملل بل ما لا تشاركها فيه ملة أخرى . وقد اتفق أن جيء لمدرسة البنات السنية على عهد القس الشهير المستر دانلوب المسيطر على وزارة المعارف بناظرة انكليزية ممن ترين تربية حرة عالية ، فلما كتبت تقريرها المعتاد في آخر السنة المدرسية اقترحت على وزارة المعارف الزام جميع من يتعلم فيها من البنات أن يتعلمن

عقائد الدين الاسلامي وأحكامه ويؤدين عباداته من صلاة وصيام ، وعلة ذلك بأن عاقبة هؤلاء البنات أن يكن أمهات مربيات لنش الأمة ولا يصلح لتربية الا الام المتدينة الصالحة لأن تكون قدوة ، ولذلك أجمعت الامم كلها على تربية البنات تربية دينية علمية عملية » قالت « ولما كان في هذه البلاد ثلاثة أديان كلها تأمر بعبادة الله والتحلي بالفضائل واجتناب الرذائل ، وهي الاسلام والنصرانية واليهودية ، ولما كان اختلاف التعلم الديني مضرا بالتربية ومخلا بوحدة الأمة ، وكان الاسلام هو دين الاكثرية الغالبة وجب جعله هو الدين الذي يبنى على أساسه نظام التعليم والتربية في هذه المدرسة ، فانا أقترح جعله رسميا إلزاميا فيها

أترى أيها القارئ ، ماذا فعلت وزارة المعارف بهذا التقرير ؟ أمات لعمر أن القسيس دنلوب كان هو الوزارة وكان الوزير ومن دونه مستخدمين له أو آلات بيده ، وقد عزل جنابه [illegible] وحفظ تقريرها أو مزقه تمزيقا .

جميع المدارس التي [illegible] إسلامية [illegible] المعارف في تربيتها وتعليمها سير القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل ، حتى مدارس الاوقاف الملكية وكذا مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية التي كان غرضها الوحيد على عهد رئيسها الاستاذ الامام ومديرها حسن باشا عاصم « تغمدهما الله برحمته » تربية أولاد الفقراء من المسلمين تربية إسلامية خالصة وتعليمهم ما لابد منه لكل مسلم من عقائد دينه وأحكامه وآدابه مع مبادئ لغته وسائر ما يلقن في المدارس الابتدائية من حساب وغيره . وغاية ذلك كله أن يكون أولاد الطبقات الفقيرة من المسلمين كالعجب أن يكون المسلم في أدبه وصدقه وكرامته وأمانته وموضع الثقة في عمله أيا كان

أتدري أيها القارئ المسلم ما أصاب هذه المدارس من الانتكاس والارتكاس بعد ذينك الرجلين المصلحين اللذين لم تنبت طينة مصر مثلهما منذ قرون ؟ حسبك أن تعلم أن الجمعية أنشأت مدرسة للبنات تمرينهن على الرقص دون تمرينهن على

الصلاة ؟ وأما الثمرة العامة لتربية البنات وتعليمهن فانك ترى النساء بعينك في الاسواق والشوارع والمحافل والمجامع ، والملاعب والمراقص ، والمراسح وفي الحمامات البحرية والجمعيات النسائية ، فقد بلغن من الخلاعة والرقاعة بل الاباحة دركا ، صار يستقذره الكتاب الاباحيون الذين دعوا اليه من قبل

ألفت كتابا (في حقوق النساء في الاسلام) أثبت فيه أن الاسلام كرمهن وأعطاهن من الحقوق الدينية والمدنية والسياسية مالم يسبق الى مثله أو مايقرب منه دين من الاديان ، ولم يبلغ شأوه فيه قانون ولا نظام وسميته (نداء للجنس اللطيف الخ) فقرظته الصحف وصرحت بأنه لم يكتب مثله في موضوعه ، فلم يبلغني أن جمعية نسائية ولا امرأة مسلمة طلبت الاطلاع على هذا الكتاب ، بل أهديته الى كاتبة أديبة مسلمة ينشر لها المقطم رسالات كثيرة في الآداب والعادات وغيرها فقرظته تقريظا حسنا ورغبت المسلمات في قراءته بقولها: ان مؤلفه يبذله لكل من تطلبه منهن بدون ثمن ، فلم يطلبه منهن أحد ، فأين الاسلام وأين التربية الاسلامية في مصر ؟

وإذا كان هذا شأن من يتعلمن ويتربين في المدارس التي تسمى إسلامية فما رأيك فيمن يتعلمن في مدارس جمعيات التنصير وراهبات الكاثوليك ؟ ان هؤلاء يحتقرن الاسلام وكل من ينتمي اليه ويحتقرن لغته أيضا . روت طالبة سورية في مدرسة أمريكانية أن زميلتين لها من بنات باشوات مصر قالتا لها وقد كلمتهن باللغة العربية : كيف ترضين أن تتكلمي بهذه اللغة القذرة !!؟ فلعنة الله عليها وعلى والديها ووالدتيها في الدنيا والآخرة . اه المقالة

(المنار) كنت كتبت هذه المقالة لمجلة التعليم الالزامي استجابة لطلبها ، وأردت أن أتم موضوعها بمقالة ثانية فحال دونها زحام شواغل دار المنار ، وقيل « شغل الحلي أهله أن يعار » والصحف قلما ينقل بعضها مقالات بعض ، ولكن قد يسرق بعضها من بعض ، وقد يكلف بعض محرريها أن يكتبوا لغيرهم صحفهم حتى يتفق أن يطلب منا مقالات وفتاوى لتنشر في صحف مصرية وغير مصرية في وقت واحد !!!

المولد النبوي

(احتفل في هذا العام به في بمباي (الهند) احتفالا وصفه مراسل البلاغ بما يأتي)

لم تشهد بمباي منذ سنوات احتفالا شعبيا رائعا كالاحتفال الكبير الذي أقامه مسلمو بمباي هذا العام في اليوم الثاني عشر من ميلاد أشرف الكائنات وفخر الوجودات المثل الاعلى ، وحبيبة الله المصطفى ، محمد بن عبد الله صلوات الله تعالى عليه وسلم ، في نحو الساعة الثانية والنصف بعد الظهر عقد المسلمون له في بمباي أعظم جلسة برياسة مولانا (هيزهولينس تقدس ما آث پير سيد مطاع الدين مشاميان جشتي صاحب) حضرها ما يزيد عن عشرين ألف نسمة ، يتقدمهم من أعيان المسلمين وكبرائهم عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي وخان بهادر شيخ علي باعكظة وقنصلا إيران والافغان ، والدكتور حافظ شلدريك ، والمستر محمود دو الانجليزي محرر التيمس في بمباي الذي أتى بزوجته وولديه منذ سنة في بمباي وكان محرراً في الا[illegible] [illegible] وصديقه الوفد مستر سروجيني نايدو ومولانا أبو السعود [illegible] الشيخ أحمد يوسف ورهط كبير من أعيان الفرس والهندوس وفضل السيدات وكرائم العقيلات

وقد افتتح الجلسة مولانا أبو السعود سعد الله بعشر من القرآن الكريم ثم قرىء المولد النبوي الشريف ، ثم انتخبت هيئة الجلسة سمو السلطان صالح القعيطي لافتتاح الحفلة فاستهل الموقف بخطبة جليلة استعرض فيها حياة الرسول الاطهر ﷺ وأثر المدنية العربية في الشعوب الاسلامية وانتقالها إلى أوربا وأمريكا ، وأفاض في ذلك طويلا ببلاغة وطلاقة تبين عن علم غزير وسعة اطلاع.

ثم وقف السردار سليمان قاسم ميتا وخان بهادر شيخ علي باعكظة وسيد أحمد صديق كهتري صاحب ، ومولانا خجندي صاحب ، وأيدوا بالاجماع اسناد تلاوة السيرة النبوية إلى مولانا (هيز هولينس) رئيس الجلسة ، وقد وافق الحاضرون على ذلك ، فشرع حضرته في تلاوة السيرة النبوية الشريفة باللغة الانجليزية وأخذ في شرحها شرحا وافيا

ثم وقف الدكتور خالد شلدريك بعد أن قدمه أحد أعضاء الجلسة باسم المرشح الوحيد لعرش تركستان الصينية ، فاستهل الموقف بخطبة حماسية طويلة بالانجليزية أتى فيها بالسبب الذي دعاه لاعتناق الاسلام ، وكيف فتش طويلا وبحث كثيراً في كل ما كتب السلف والخلف عن الاديان، وأنه لم يقبل الدين الاسلامي إلا عن علم ومعرفة، وأنه خير الاديان وأقومها، إذ جاء في مصلحة المجتمع البشري ورفاهيته وأن الدين الاسلامي اجتذبه بسحره ومغنطيسه فاحتضنه بين يديه وهو ابن التاميز ، وليس هذا بعجيب

ثم انتقل إلى حالة المسلمين في الصين وعن رحلته فيها وقال ان عددهم أكثر من خمسين مليونا ، وأن مسلمي الهند يبلغ عددهم أكثر من سبعين مليونا ، وأن عدد المسلمين في أفريقا يزداد يوما فيوما ، وأن برناردشو أنذر أوربا وأمريكا بأن الاسلام سيكتسحهما في الوقت القريب العاجل .

ثم انتقل إلى [illegible] البوليس وروقب في الصين وغيرها لقيامه بالدعاية الاسلامية والتبشير في كل محل حل فيه ، ووصف حالة المسلمين وما هم عليه اليوم من تشتت واضمحلال ، وقال إن خير طريق لتقدم المسلمين واسعادهم هو الرجوع إلى القرآن بالعمل بما فيه، ونبذ التحزب والشقاق بالاتحاد ، وإن الكتلة المجموعة لاتقدر على قصمها اليد الواحدة

ثم وقف أحد الاعضاء وأعلن الحاضرين مشاركة (أعليحضرت آصفجاه الثالث سمو نظام حيدر أباد مير عثمان عليخان خلد الله ملكه) المحتفلين في شعورهم بنظم قصيدة عصماء في مدح النبي ﷺ تلاها العضو بصوت رخيم خاشع ملكت على الحاضرين مشاعرهم وعواطفهم، واستعادوها مراراً وتكراراً، والقصيدة بالفارسية ومطلعها كما يأتي :

(شه ملك رسالت صاحب تاج وسر آمد — وزير وواز دارو نائب رب قدير آمد)

ثم وقف عضو آخر وأعلن المجتمعين بمشاركة حضرة صاحب الدولة يمين السلطنة صدر مهام الدولة سير كشن برشا رئيس وزراء مملكة حيدر أباد دكن

بقصيدة غراء من نظمه في مدح أفضل الموجودات وأشرف الكائنات سيد العرب والعجم ﷺ باللغة الاوردية تلاها (سيد فر صاحب) بصوت عذب رخيم واستعادها الحاضرون أيضاً مراراً وتكرراً، والظاهرة الوحيدة التي يسجلها التاريخ هنا لصاحب الدولة يمين السلطنة أنه هندوسي لم يمت إلى الاسلام بصلة إلا أن حبه للرسول ﷺ جعله ينظم الكثير من قصائده ويجعلها وقفاً عليه ﷺ

ثم وقف مولانا (خجندي صاحب) وقدم مسز سروجيني نايدو الهندوسية للحاضرين وخيرهم في أن يلتمسوا منها الخطابة بالاوردية أو الانجليزية فدوي المكان بالتصفيق وطلبوا منها الاوردية وتحمسوا لها كثيراً، ثم وقفت زعيمة الهند وتكلمت بالاوردية بفصاحة وطلاقة، والتمست أيضاً هي من الحاضرين أن يسمحوا لها بالتكلم بالانجليزية وقالت :

إن ضيوفنا الأعزاء الذين تشرفوا باعتناق الدين الاسلامي الحنيف ينبغي لنا أن نراعي شعورهم وإحساسهم (تشير بذلك إلى المستر محمود دبر المسلم الانجليزي محرر التيمس وزوجته والدكتور [illegible] ولا نتكلم باللغة التي يفهمونها لكي لا يعدوا أنفسهم [illegible] الكلام المورود فصالت وجالت بالانجليزية الفصحى فتكلمت عن محاسن الدين الاسلامي طويلا وعن عبقرية محمد (صلوات الله تعالى عليه) الفذة ، وعن حياته وسيرته وأعماله ، وكيف تغلغل الاسلام في العالم شرقا وغربا، وما كان عليه المسلمون من السلف من العز والسؤدد والشأن والسلطان، وكيف أن الهندوس مع وفرة عددهم وكثرة عددهم يرتعبون كل الرعب ويحسبون للمسلمين ألف حساب ، وان محمداً الذي جاء لتحرير العالم من ربقة الذل والعبودية ، كذلك جاء تلميذه المهاتما (غاندي) اليوم لتحرير الهندوس من ربقة الذل والعبودية ، وان الاسلام لا يحتاج لامرأة مثلها أو غيرها من كبار الكتاب والفلاسفة أن يشرحوا محاسنه ولا أن يظهروا فضيلته

ثم انتقلت فجأة إلى الكلام عن حالة المسلمين اليوم وشقائهم ، وتفرقهم وانحطاط قواهم وضعفهم، وعن الجهل والاضمحلال، وعن الذل والعبودية الذين يرتع فيها أكثر المسلمين اليوم ، وألحت باللائمة عليهم جميعهم لتقدم غيرهم من

الامم ، واحتلال أماكنهم والتربع على عرش سؤددهم ومجدهم

وقالت إن الاسلام يحتضر فكما أن الحسين (رضي الله عنه) ذبح في كربلاء، فاليوم يذبح الاسلام في عقر داره، وإن كل بقعة من بلاد المسلمين هي كرب وبلاء، ونبهت المسلمين إلى تدارك حالهم ، وجمع كلمتهم ، ولم شعثهم ، وتوحيد صفوفهم ، وتنظيم أمورهم، وربط أولهم بآخرهم ، وآخرهم بأولهم ، وتدارك الامر قبل فوات الوقت ، ثم قالت : إننا وإياكم نعبد إلهاً واحداً ، وما قال الله أنا رب المسلمين، وانما قال تعالى جل شأنه أنا رب العالمين ، واستغرقت خطبتها نحو ساعة كاملة

ووقف المستر محمود دبر الانجليزي المسلم وتلا تقريراً كبيراً مؤثراً عن حياته الاولى وشغفه وبحثه في الاديان، وتطوع الكثيرين من أفاضل المصريين وعلمائهم في تسهيل مهمته وارشاده ، وتنوير ذهنه مدة وجوده في مصر موظفاً في تحرير الاجيشيان دايلي ميل ، ومدح المصريين كثيراً وأثنى عليهم وقال : اننا تغبط أنفسنا معشر المسلمين اليوم بوجود أمة فاضلة عربية مجيدة لها تاريخ مجيد كالامة المصرية ، وإن [illegible] الأمة الناهضة [illegible] وافر من حيويته ونهضته الآن، وأن مصر [illegible] وعلمهم وعبقريتهم، وأنه لن ينسى أصدقاءه المصريين مادام فيه عرق ينبض

ثم خطب بالانجليزية (ديوان بهادر كريشنا صاحب) أحد كبار الهندوس وأدبائهم مادحاً الرسول الاعظم ﷺ وخطب بالاوردية نواب زاده سيد مرتضى خان صاحب رئيس المؤتمر الشيعي وبالكجراتية أيضاً مولانا نور بهاي صاحب

وانفضت الجلسة في الساعة السادسة والنصف تماماً، وقد جهزت القاعة بالراديو وربطت بثلاث أحياء عظيمة اسلامية في بمباي ليتسنى لأكبر عدد ممكن من المسلمين سماع كل ما يجري من الحفلة حرفياً، ومثلت الحفلة اثنتان وأربعون هيئة اسلامية .

وفي المساء عقد المسلمون جلسة كبرى برآسة مولانا شوكت علي ومولانا عرفان صاحب وغيرهما من أهل بومباي في ميدان (جونه قبرستان) حضرها نحو ٣٠ ألفاً من المسلمين وتليت القصة النبوية الشريفة ، وانفضت الجلسة في نحو منتصف الليل.

ترجمة الشيخ محمد الجسر

(هذه خلاصة تاريخية لترجمته مستمدة من آله رحمه الله وأحسن عزاءهم عنه)

(١) تولى والده تربيته فصنع على عينيه وألبسه الزي العلمي الديني وهو في الثانية عشرة من عمره، وعلمه عقائد الدين وأحكامه بنفسه، وخرجه في المدارس الرسمية التركية وجعل له معلماً خاصاً يعلمه اللغة الافرنسية، لعدم العناية بتعليم الافرنسية في مدارس الحكومة العثمانية، وهو المعلم عثمان أفندي الارنؤوط الشهير بتعليم الافرنسية في طرابلس

(٢) في العشرين من عمره عين مديراً لمدرسة اللاذقية الاعدادية الرسمية فمكث فيها زهاء سنة، ثم نقل على سبيل الترقية مديرا المدرسة الاعدادية الرسمية في طرابلس، وظل في هذا المنصب الى سنة ١٣٢٩ هجرية

(٣) في هذه السنة وقع الانقلاب الدستوري في الدولة العثمانية وتولت جمعية الاتحاد والترقي زمام الأمور فيها، وكان والده العلامة معدودا من رجال السلطان عبد الحميد فكانوا ينظرون اليه بنظر الريبة ولم يتدخل في سياستهم وربما أظهر نجله الشيخ محمد السخط عليهم فاستقال من مديرية المدرسة وأراد والده رحمه الله أن يسلك سبيلا حراً في العمل ويترك الوظائف فأطاعه وأخذ يشتغل بالتجارة فبورك له في عمله، وجنى منه ربحا غير قليل. وما كان يظن بمثل الشيخ في علو جاهه ومقامه العلمي أن يرضى لولده أن يكون تاجرا صغيراً ولكن سعة عقله وعلمه بحال زمنه كانا فوق أفق أقرانه من كبار العلماء وعامة الوجهاء.

(٤) وكان والده رحمه الله قد ترك اليه من قبل ذلك بسنتين تحرير جريدة طرابلس فكان الشيخ محمد يشتغل بالتجارة وبتحرير هذه الجريدة في آن واحد وكان يكفيه أن يستغني بالتحرير عن التجارة، وكان غيره يعجز عن الجمع بينهما

(٥) وفي سنة ١٩١٢ ميلادية رشح نفسه للنيابة عن لواء طرابلس في مجلس المبعوثان، وكانت حكومة الاتحاديين قد رشحت لها رجلا تركيا مقيما في طرابلس، ولكن الطرابلسيين اجتمعوا إلبا واحداً على انتخاب الشيخ محمد

فرأت الحكومة أنها مضطرة الى موافقتهم فتنازلت عن مرشحها الخاص له ففاز بالنيابة فوزاً شعبيا باهراً كان يومه مشهودا ، ولا تزال مهرجاناته حديث الناس حتى اليوم ، وقد استفاد من ممارسته لاعمال المجلس في سنة واحدة علما واختباراً واعتبارا في السياسة والنظام ، ما كان ليستفيده في خارجه الا في عدة أعوام

(٦) بعد ان أغلق الاتحاديون المجلس النيابي سنة ١٩١٣ عاد الى طرابلس ورشح نفسه لانتخابات المجالس العمومية للولايات ففاز فيها وذهب لبيروت فنال حظوة كبيرة عند الوالي بَكِر سامي بك الشهير ، ثم عند الوالي عزمي بك لما رآه فيه من الفضل والعلم والذكاء العجيب والدهاء الغريب ، وما لبث أن عرف الناس في بيروت وجميع أنحاء الولاية أن الشيخ محمد الجسر هو الرجل الذي يلي الوالي في النفوذ وإدارة دفة الحكومة طول مدة الحرب فأتاح له هذا المقام الرفيع أن يسدي الاحسان الى كثير من [illegible] من طرق ووسائل شتى ، فأجمعت القلوب على حبه ولا سيما النصارى الذين كانوا يرون من آثار شفقته ما لم يكونوا يحتسبون

(٧) لما وضعت الحرب أوزارها واحتل الحلفاء البلاد وجدوا الشيخ محمدا في رئاسة المجلس العمومي التي شغلها طول مدة الحرب فأقروه فيها ، ثم اختلف مع الحاكم الفرنسي فاستقال حالا وكان يعرف سبيل الحياة الحرة الذي يغنيه عن الحكومة كما علمه أبوه فعاد فوراً الى الاشتغال بالتجارة في بيروت .

(٨) لكن الافرنسيين لم يتركوه فما لبث أن بلغ قرارا من الحاكم الافرنسي العام بتعيينه لرئاسة محكمة الجنايات العليا في بيروت فوجم لذلك لانه لم يسبق له اشتغال بأمور القضاء لا قاضيا ولا محاميا ، ولكنه قبل المنصب الرفيع وأخذ يجهد نفسه بدرس القوانين الجنائية حتى برع فيها وتمكن بفرط ذكائه من الاضطلاع بأعباء هذا المنصب على أكمل وجه فأدهش رجال القضاء وجماعة المحامين

(٩) مكث في هذه الوظيفة من سنة ٩١٩ الى سنة ٩٢١ وفي هذه السنة عهد اليه بمنصب رئيس النيابة العمومية في محكمة التمييز فمكث فيها شهرين تقريبا ثم عهد اليه بمنصب (وزارة الداخلية) في الحكومة اللبنانية ، وبعد سنتين عهد اليه [بوزارة المعارف] وظل فيها الى سنة ١٩٢٦

(١٠) في هذه السنة أعلنت الجمهورية اللبنانية فعين الشيخ محمد عضواً في مجلس الشيوخ اللبناني وانتخب رئيساً له، ولما أدغم مجلس الشيوخ في مجلس النواب انتخب رئيساً له، وظل في هذه الرئاسة ينتخب في كل عام بلا انقطاع ولا مزاحمة من أحد الى تاريخ ٩ مايو سنة ١٩٣١ إذ عطل الدستور وحل المندوب السامي الفرنسي المجلس النيابي

وقد كان سبب حل المجلس على ماهو مشهور موقف الشيخ محمد نفسه من قضية رئاسة الجمهورية فانه رحمه الله رشح نفسه لرئاسة الجمهورية وأيده في ترشيحه أكثر النواب ، ولكن بطريرك الموارنة ملأ سماء فرنسا صراخاً وعويلاً لكي لا يكون على رأس لبنان حاكم مسلم، وصور ذلك لوزارة الخارجية الفرنسية بصورة خرق للنواميس والتقاليد المعروفة عنها مع النصارى عامة والمارونية خاصة، ولم ينفع معه اقناع المفوض السامي المسيو بونسو أنه لم يكن يرى بأساً بنجاح المسلم بقبيل هذا المنصب ، فظل البطريرك مصراً على رأيه يطالب فرنسة بتعصب صليبي صريح أن توسد رئاسة الجمهورية اللبنانية لشخص مسيحي لانه مسيحي حتى اضطرت وزارة الخارجية [illegible] المفوض السامي يبذل كل نفوذه لتحقيقه. فحاول حمل الشيخ على الانسحاب فأبى وأصر على ترشيح نفسه حتى النهاية.
وبعد مراجعات كثيرة أمرت وزارة الخارجية مفوضها السامي بحل المجلس وتعليق الدستور عند عدم النجاح في انتخاب المرشح المسيحي ففعل .

(١١) عزم الشيخ محمد عقب هذه التجربة عزماً قاطعاً على ترك الحياة السياسية لانه اذا اشتغل بشيء وجه له كل قواه، فانقطع للاشتغال بالعلم والمطالعة والتأليف فوضع مصنفات أهمها سيرة حياة والده مفصلة كان من مادتها ما كتبته له بطلبه ثم وعدني بعرضها علي قبل نشرها ، ودون مذكراته السياسية وما كان اعراضه عن مناصب الحكومة بصارف الوجوه عنه ، بل ظل محترماً مبجلاً محبوباً من الجميع حتى الافرنسيين أنفسهم ، وبقي كذلك لايفكر بالحياة السياسية ولا تبدر منه أقل بادرة تدل على التقرب من رجال السياسة وطنيين واجانب الى أن وافاه الاجل المحتوم في التاريخ الذي بيناه في الجزء الماضي ، فكانت نهايته في كل أمر خيراً من بدايته، وانما الاعمال بالخواتيم ، غفر الله لنا وله وأدخلنا برحمته في عباده الصالحين

كلمات في الوحي المحمدي

أنشر هنا بعض ما جاءني من المكتوبات الخاصة لبعض قراء كتاب (الوحي المحمدي) من طبقات أهل العلم والرأي في الاقطار المختلفة فيما كان له من التأثير في أنفسهم

﴿ كلمة مجلي لرب السيف والقلم، العالم العلم، سليمان باشا الباروني ﴾

حضرة العلامة الجليل، المتفاني في اعلاء كلمة الله واحياء سنة رسول الله، محقق العصر، الاستاذ السيد رشيد رضا دام موفقا

السلام عليك من أخ لك في الله مولع بتتبع أخبارك، ومطالعة آثارك، معجب بجهادك في دفع شبه الملحدين، وتأييد حجج المؤمنين . هذا وقد تلقيت بيد الاحترام هديتك الثمينة مؤلفك (الوحي المحمدي) فتتبعت ـ بشغف زائد ـ أبوابه، وتصفحته على سبيل الاجمال (الآن) فكان في نظري سيفا بتارا لرقاب أعداء الدين، وحجة بالغة للمؤمنين، فلله جهادك العظيم، ولله قلمك الفياض

أمدك الله بروح من عنايته، ووفق رجال الاسلام الى اقتنائه والعمل لما فيه، وسأكتب اليك غير هذا بعد أن أفرغ لمطالعته مع تأمل ان شاء الله، ودم معززا ترسا للاسلام؟ بغداد في ٢٤ صفر سنة ١٣٥٣ من أخيك المخلص

سليمان الباروني

﴿ الكتيب الوجيز، المغني عن الوسيط والبسيط، للاستاذ المستقل ﴾

(عبد الرحمن بك فهمي، أمين السر لتأسيس الوفد المصري من مصطفاه في الخدمة)

سيدي الاستاذ الجليل، السلام عليك ورحمة الله وبركاته (وبعد) فقد فرغت من تلاوة مؤلفك الفذ (الوحي المحمدي) ولا أقول فيه أكثر من أنني لم أعثر مدة حياتي على كتاب انشرح لهصدري، واطمأن لهقلبي، وارتاحت له كل

مشاعري، بعد كتاب الله غيره «الوحي المحمدي» فجزاكم الله خير الجزاء عن الاسلام والمسلمين. وان هذا المؤلف الجليل القدر، لجدير بأن يقتنيه كل مسلم ويتلوه مثنى وثلاث ورباع، وهكذا حتى يستوعب كل ما فيه من درر وآيات بينات، يرد بها بقدر استطاعته أقوال الملحدين من أمته، ويدفع بها سيل المهاجمين من غيرهم

متعك الله بالصحة والعافية لتبقى ذخراً للاسلام والمسلمين، والسلام عليك وعلى من تحب وتختار ؟

فينا في ٥ يوليه سنة ٣٤ المخلص

عبد الرحمن فهمي

﴿ كلمة سعادة عالم التاريخ، ومربي العلماء والاساتذين أمين باشا سامي الشهير ﴾

حضرة صاحب الفضل والفضيلة العالم العلامة الاستاذ الشيخ رشيد منشيء المنار، ومصدر العلم والمفيض على العالم أسطع الانوار

اليوم بحمد الله أتممت مطالعة كتابك الجليل (الوحي المحمدي) فحيا الله منك يراعتك وإخلاصك، فقد صورت فيه عواطفك الشريفة فأبدعت تصويرها حتى زهاها الحسن، فأهنئك بهذه الكلمة السامية من الادب والتوفيق الى أقوم المراتب العالية في تفسير آي الله الكريم، وأشكر لك شكر المخلص الحميم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

الداعي أمين سامي

محطة رشدي باشا برمل الاسكندرية في ٦ اغسطس سنة ١٩٣٤

(تقريظ علامة الاكراد الشيخ عمر القره داغي)
(المدرس بكردستان العراق في بلدة سليمانية)

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد رسالته ببراهين هادية لأولي الالباب، وعلى آله وصحبه وتابعيهم الى يوم الحساب

(وبعد) فقد وقفت على كتاب الوحي المحمدي للعلامة الشهير، والفهامة

التحرير، السيد محمد رشيد رضا أطال الله عمره، فوجدته حاويا لحقائق قامعة لغياهب شبه المتمردين والمبتدعين، وفوائد ترشد المتحيرين، وفلكا مشحونا بدرر فرائد الشواهد النقلية الباهرة، وفلكا مرصعا بكل كوكب دري توقد النكت والدلائل العقلية القاهرة، وقد أتقن فيه براهين اثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وما يتعلق بها واستقصاها، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولخص فيه نكتا قرآنية بحيث لم ينسج أحد على منوالها، ولم تسمح قريحة بمثالها، ويذعن بها العالمون، ولا يجحد بها إلا القوم الظالمون، فشكرت الله تعالى على تزيين عصرنا بوجود هذا الحبر الذي هو علامة الزمان، ولا يختلف في كمال فضله اثنان، لا زال مستخرجا من بحر علومه أمثال هذه الجواهر، ومتلألأ من سمائه فضائله هذه النجوم الزواهر، أدام الله نفعه للمسلمين، ووفقه على نشر هذه الآثار المؤيدة للدين، والدامغة لغلاة أوهام المبطلين، بجاه سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين

ابن القره داغي عمر

﴿ تقريظ الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الحميد الامام بقرية (ته نكي سدر) ﴾

التابعة للسليمانية

بعد تقديم مقامات الاحترام، وتبليغ قصارى مدارج السلام، الى محضركم المفوف بالعلم الذاب، والكمال المستطاب:

إن سعيكم في سبيل توطيد أركان الدين المبين لمشكور، وعملكم لتوثيق عرى المودة بين طوائف المسلمين لمأجور، وجهادكم للذب والدفاع عن حوزة الاسلام لمبرور، ولا يخفى لدى ذوي البصائر ما لأناملكم الشريفة من اليد الطولى على آحاد المؤمنين، والحريطة خيالكم الوقادة من الرئاسة العظمى على الناس أجمعين

فلله الحمد والمنة والشكر والنعمة والثناء، حيث لا يترك أمر هذه الامة اليتيمة شتى، ولا يجعل شأنها بينها متفرقة فوضى، بل يبعث في كل عصر من يجمع لها شملها، ويلم شعثها، من يتنكر ما لكم على العالم الاسلامي من النعمة العظمى،

والفضيلة الكبرى ، مع أن ما تقاسونه من السهد والسهر خلال الليالي والايام ، وما تتجرعونه في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وهي الحنيفية البيضاء ، والشريعة السمحة لأحدية الغراء ، من المرارات التي لايفي بها التقرير ، ولا يبلغها التحرير ، لان الوجدانيات لاتنال بالتعبير ، فجزاكم الله عن الاسلام والمسلمين آمين

وإن مما هز العالم وفي الآفاق لم ، وسر آدم وبنيه أجمع ، إلا من في قلوبهم أكنة ، وعلى أبصارهم غشاوة ، وأسدلوا على محياتهم الجهالة والغباوة ، تصنيف لطيف نبع من مناهل أنامل حضرتكم الاستاذ ، وتفجر من ينبوع جمجمة ذلك الفاضل اللاذ ، فانتشر في الآفاق صيته وصداه ، واشتهرت لدى الفضلاء والعقلاء لطافة مبناه ، ولا غرو لان موضوعه موضوع طالما طاف حوله الفحول ، وتزاحموا عليه بالمعقول والمنقول ، الحق يقال ما أتوا بالمطمح الفريد ولا بالمنتقى النخول ، وهو إثبات الوحي المحمدي المتوقف على إثبات الروح العاقل المتوقف السكل على الجزء المادي ، المستدعي لإثبات عالم الغيب الذي هو ركن أساس للديانات كلها ، برد كيد الماديين على نحورهم بالأدلة والبراهين الواضحة والسلطان والحجج اللائحة ،

نعم ان الامور مرهونة بأوقاتها ، وإن زماننا هذا لأحوج الأزمان إلى هذا الكنز الثمين ، الا يرى أن الحق منكوب بدعايات الزنادقة المارقين ، بدوام الخافقين في المشرقين ، ولعمري إن من غاص بالفكر في مستجادات ذلك العباب ، وسرح النظر في مكنونات ذلك الكتاب ، يستبين أن الديانة الاسلامية في الكفة الراجحة ، وإن نبيه عليه السلام جاء بالحجة الواضحة ، وإنه لنبي عظيم مؤيد من الله القادر ، لم ير له مثلا إنسان عين الانسان ، ولن يراه أبدا ، فاني أرجو من حضرتكم أن تسمحوا من ذلك الكتاب بنسخة أو نسختين كيلا لا يحرم بلادنا عن شذاه ورياه ، يرعكم الله في الدارين به وبأمثاله التي هي من ثمار حياتكم النافعة ، وهذا الحقير لايتعاطى مايعود عليكم بالغبن والخسران ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الحميد الامام

الحج في طوره المدني المترف

كان كثير من المسلمين يحجون إلى بيت الله الحرام رجالا أي مشاة على أقدامهم حتى إن هارون الرشيد حج ماشيا ، وأكثرهم يحجون ركبانا على الابل، وبعضهم على الخيل والبغال والحمير ، وكان بعض أهل الاقطار البعيدة عن الحجاز في الشرق والغرب الذين وراء البحار أو في جزائرها يركبون السفن الشراعية فيقاسون في مصارعتها للأمواج وعواصف الرياح أهوالا ، يرون فيها من الموت صنوفا وألوانا وكانوا ينفقون في سفر الحج أموالا عظيمة،وربما استغرق سفر الحج سنة أو أكثر، وكان مريد الحج يوطن نفسه على الموت فيكتب وصيته ويودع أهله لبعد الشقة وشدة المشقة ولفقد الامن على الانفس والاموال ، وكانوا يعدون ماينفقونه في سفر الحج أفضل نفقاتهم،ويعدون فضلها في تطهير أنفسهم وتزكيتها مايعقونه في نفس الحرمين الشريفين من الصدقات والقربات على أهلهما ، مهما يكن من هناتهم فيهما

ولما أنشئت البواخر الكبار الواخر في جميع البحار قربت المسافات،وقلت النفقات،ولكن [illegible] الاقطار الاسلامية تواطؤا على معاملة الحجاج [illegible] ليصرفوا أكثر أغنياء المسلمين المترفين عن الحج وزادوهم رهقا بما وضعوا من النظم الشديدة للحجر الصحي عليهم ، ووافقتهم الحكومة المصرية على ذلك فكانت معاملات رجالها للحجاج في موانيها ومحاجرها أقسى من كل يقاسونه في غيرها شدة وإهانة ونفقة ولا تزال تعد أرض الحجاز بيئة وبائية بسوء خضوعها للسيطرة الاوربية ، وقد مرت عشرات من السنين لم يقع فيها وباء في الحجاز ، ومن المعلوم بالقطع انه ماوقع وباء فيه من قبل إلا منتقلا اليه من غيره من الاقطار ولا سيما الهند ، ولا تزال الحكومة المصرية تفرض على من يسافر الى الحجاز لاداء فريضته ومن يعود منه معاملة شاذة مرهقة لاتعامل بمثلها من يسافر من الهند أو يجيء منها ، على أن وطأتها خففت في السنين الاخيرة ، وقد دخل موسم هذا العام في طور جديد من الراحة والسهولة والاقتصاد والانتظام بما أعدته له شركة بواخر مصر في باخرتيها زمزم والكوثر ، وسنبين ذلك في مقال آخر مع مايجب على الحجاج في دينهم شكرا على هذه النعم عليهم